بيروتونيوم

٢٠٢٠/٠٨/٠٤

٠٨:٠٦ م.

beirutonium high resolution photos.indd 1 9/20/2021 10:47:13 AM

ألحان فرحات

بيروتونيوم

٢٠٢٠/٠٨/٠٤

٦:٠٨ م.

دار الشرق

beirutonium high resolution photos.indd 3 9/20/2021 10:47:13 AM

الطبعة الأولى
٢٠٢٢

©دار سائر المشرق

جديدة المتن–نهر الموت
سنتر بايلايان–الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس ٠١/٩٠٠٦٢٤
info@entire-east.com
www.entire-east.com

تدقيق: روبير نسطه
تصميم الغلاف: ليال بو هدير
الصور الداخلية: رامي رزق

ISBN: 978-614-451-253-1

beirutonium high resolution photos.indd 4 9/20/2021 10:47:13 AM

هذه الرواية مهداة إلى الأيقونات الإنسيّة حول العالم...

beirutonium high resolution photos.indd 5 9/20/2021 10:47:13 AM

الإهداء

إلى أرواح الشهداء الأبرار الّذين سقطوا في انفجار مرفأ بيروت الغادر،

إلى الجرحى الأحرار المناضلين من على حلبة سباق الحياة،

إلى أهالي الجرحى وذوي الشهداء أمدّهم الله بالصبر وأعانهم على تحمّل أهوال الفاجعة الكبيرة،

إلى المجتمع المدني اللّبناني المزحم بأهل النخوة والمبادرة والإرادة الوطنية الحرة، أصحاب النفوس الوطنيّة والأفكار الإنسيّة الحقّة،

إلى المؤسّسات الأمنية اللّبنانية ما خلا ما فَسدَ مِنها ومَا يُفسدها،

إلى الأجيال الطالعة نواة الأملِ بغدٍ مُشرقٍ ومستقبلٍ أفضل،

إلى الدول الشقيقة للبنان والغيورة الكريمة كما بقيّة الدول التي بادرت ووقفت إلى جانبه وما تزال حاضرةً «شرط» حسن النيّة والالتزام الإنساني غير المشروط،

إلى كلّ عاشقٍ وطنَه وأرضَه وهُويّته، وإلى أصحابِ القضايا المحقّة،

إليهم جميعًا أهدي هذه الرواية...

المؤلّف

beirutonium high resolution photos.indd 7 9/20/2021 10:47:13 AM

الحياةُ قصيرة مهما طالت، وبين الحياة والموت همسةُ وجود لا تسمعها أجيال المستقبل إلّا إذا أتقن نُطقها أبناء الحاضر. والمجتمع الّذي لا يخطّطُ لسلامة جيل المستقبل فيه فإنّما هو يخطّط لاندثار حاضره بتغييبه الأيادي الكاتبة التاريخ وتجاهلها.#ألحان_فرحات.

beirutonium high resolution photos.indd 9 9/20/2021 10:47:13 AM

التوطئة

التأريخ... يا لهذه الكلمة وما تحمله من مضامين! إنّها علامة فارقة في نشوء الدول والحضارات، إنّها بوصلة الأحداث المؤثّرة في البشر سواء أكان سلبًا أم إيجابًا. إنّ التأريخ في اختصار هو علمُ تدوين الحقائق المهمّة التي تترك بصمتها أو وصمتها في المجتمعات البشرية. وهذا العلم يتحقّق بوسائل عدّة: مدوّنات وكتب ومقالات علميّة أكاديمية؛ وبالفنون على أنواعها لاسيّما الأدب شعرًا ونثرًا.

في هذه الرواية أردنا تأريخ الانفجار المهول الّذي حدث في بيروت -عاصمة لبنان- بعد أن أُعلن عن وجود مادة نيترات الأمونيوم في العنبر رقم ١٢ داخل المرفأ -ومن اسم هذه المادة الكيميائية ممزوجًا باسم عاصمتنا استقينا عنوان الرّواية «بيروتونيوم»- إلّا أنّ أسباب الحدث الخطير ما تزال مجهولة أقلّه حتى زمان كتابة هذه الرواية ونشرها. أردنا تأريخ انفجار نيترات الأمونيوم «النوويّ»، نقول «النوويّ» لهول الدمار الّذي خلّفه، والّذي حدث داخل مرفأ بيروت يوم الثلاثاء في الرابع من شهر آب من سنة ٢٠٢٠ قرابة الساعة السادسة والدّقيقة الثّامنة مساءً، وهذه معلومة تاريخيّة للأجيال الطالعة حتّى يعتبروا حيث الاعتبار. أردنا تأريخ الانفجار بأسلوب الأدب المتخيّل الّذي يصفُ واقعًا سُرياليًّا تراجيديًّا. وعلى الرّغم من خلق أبطال الرواية وتخيُّل أحداثها المتلاحقة، إلّا أنّ الانفجار كان حقيقيًا يتخطّى كلّ الوصف في كلمات أو صفحات

beirutonium high resolution photos.indd 11 9/20/2021 10:47:13 AM

أو مقالات... وقد كان حقًّا مأساة لبنانية تُضاف إلى سجل المآسي اللبنانية المتتابعة...

تدور أحداث الرواية في العاصمة اللّبنانية حيث وقع الانفجار الكبير في مدّة زمنيّة لا تتخطّى ساعةً واحدة من الأحداث. فهي تبدأ من الساعة ٥:٣٨ م. أي قبل نصف ساعة من وقوع الانفجار في الساعة ٦:٠٨ م. وصولًا إلى الساعة ٦:٣٨ م. أي بعد نصف ساعة من وقوعه. أبطال الرواية ثلاثة: مريم وهي شابةٌ ممرّضة «مسيحيّة» من منطقة الأشرفية تعمل في أحد مستشفياتها الخاصة. الحجّة أمّ محمد وهي أرملة وربّة منزل «مسلمة» تقطن في منطقة البسطة؛ والشاب لبنان وهو ضابط في الجيش اللّبناني مسؤول عن تأمين موقع المرفأ بعد الانفجار وتأمين سلامة المواطنين وحمايتهم من دخول دائرة الخطر.

تبدأ الرواية حيث تلتقي مريم مصادفة أمّ محمّد أمام بوابة المرفأ أو ما تبقّى منها بعد حدوث الانفجار بربع ساعة تقريبًا قرابة الساعة ٦:٢٠ م. لتحاولا معًا دخول موقع الحدث. فمريم تبحث عن والدها، رجل الإطفاء، الّذي سارع إلى تلبية نداء الاستغاثة دعمًا لزملائه العشرة الّذين سبقوه وقد كان مصيره مجهولًا. أمّا الحجّة أمّ محمّد فنزلت إلى المرفأ بسرعة حيث الدمار والخراب بحثًا عن وحيدها الحارس الجمركيّ. وتقع المواجهة مع ضابط في الجيش اللّبناني حاول ثنيهما في بادئ الأمر تنفيذًا لأوامر القيادة وحفاظًا على سلامتهما، إلى أن يتغيّر الواقع فيما بعد وتتطوّر الأحداث إلى ما لا يمكن توقّعه.

ثمّ يعود السّرد إلى ما قبل الانفجار بنصف ساعة وتحديدًا إلى الساعة ٥:٣٨ م. إلى الحياة الطبيعية التي تعيشها كلّ من مريم في المستشفى والحجّة أمّ محمد في منزلها وما واجهتاه من أحداثٍ قبل

beirutonium high resolution photos.indd 12 9/20/2021 10:47:14 AM

وقوع الانفجار وبعده إلى حين وصولهما المرفأ وحدوث تطوّرات غير منتظرة.

في الختام يتبيّن لنا مصير والد مريم كذلك مصير محمّد، وتخلص الرواية إلى رسالة إنسيّة اجتماعية مؤثرة تشدّ أزر المجتمع اللّبناني مشيرةً إلى أهمّية التعايش الاجتماعي في ما بين اللّبنانيين رغم تباين هوّياتهم الطائفية التي لا يجب نبذها أو محاربتها أو إلغاؤها، ولكن يجب نبذ كلّ ما يمتّ إلى التعصّب والتزمّت بصلة. فالأديان والطوائف مسار أخلاقي يدفع بالناس إلى الارتقاء أكثر على سلّم الإنسانية، كما الذّود والتضحية في سبيل الآخرين ونصرة الخير والحقّ.

لم تكتب هذه الرواية إلّا لطلب الرحمة لشهداء ذلك الحادث الآثم كما توجيه التحيّة لذويهم وللجرحى وأهلهم على أمل أنّ يمدّهم الخالق القادر على كلّ شيء بالصبر والسلوان. فالحقّ يعيش على قاعدة انتظار المخلوق رحمة خالقه وعدله، ولا شيء كان أو سيكون إلّا وفق مشيئته وجلالةِ حكمه وتدبيره كونه. فهذه الرواية هي أداء الواجب وشهادة الحقّ تُجاه شعبٍ أبيّ لا يعرف الانكسار ووطن رسالة لا يعرف الهزيمة.

المؤلّف

beirutonium high resolution photos.indd 13 9/20/2021 10:47:14 AM

«منطقة مرفأ بيروت قبل الانفجار»

beirutonium high resolution photos.indd 15 9/20/2021 10:47:14 AM

٦:٢٠ مساءً

«مرفأ بيروت بعد الانفجار»

الدمار في كلّ مكان، رائحة الموت تعبقُ في أرجاء المدينة، السماء حمراء والرؤية مشوّشة. أهو ضبابٌ أم دخان نار أم نفحات آهات بشرية تتحسّر على فقدان ذويها بين أنقاض زلزال عصف بالبشر والحجر؟

beirutonium high resolution photos.indd 17 9/20/2021 10:47:14 AM

وصلت أمّ محمّد إلى المرفأ لتجد طوقًا عسكريًا يمنع دخول مكان الانفجار، فتلقّفها ضابط في الجيش برتبة نقيب مهدّئًا روعها بعد أن شاهد الدماء تصبغ وجهها ويداها ترتجفان هلعًا..

تمهّلي يا حجة! مَن أنتِ؟ إلى أين تذهبين؟ المنطقة كلّها مقفلة والدمار في كلّ مكان، الخطر كبير في الداخل، إنّك نازفةٌ ويجب نقلك إلى المستشفى.

- لا تأبه لإصابتي ولا تأسف على حالي... قل أعانني الله على مصابٍ أخشى أن يُدمي قلبي. أرجوك أتركني.. دعني أدخل ...
- يا حجّة أنا قلقٌ عليكِ، ولا أستطيع مخالفة الأوامر. قد أتت التوجيهات بتطويق المكان حرصًا على سلامة المواطنين وتفاديًا لأي خطر داهم.
- بنيّ... لا خطر يعادل خطر فقدان ولدي وحيدي! أرجوك إسمح لي بالدخول، فلا قيمة لحياة ولا طعم لوجود إذا خسرت نور عينيّ وبهجة قلبي... أرجوك...

ركعت أمّ محمد ممسكةً رجلَي النقيب وهي ترتجف وتنوح وترجوه أن يسمح لها بالدخول متحسّرة خائفة على مصير ولدها، وقد حاول الشاب حثّها على الوقوف وثنيها عن رجائها وطلبها. إلّا أنّ الحجّة تسمّرت في مكانها وراحت تنادي ولدها «محمّد» وعيناها شاخصتان إلى المرفأ المدمّر وقد علتهُ لجّة الدخان والنّار. في تلك اللحظة، وصلت مريم لتراهما أمام عينيها فاقتربت منهما وما كان أمرها أفضل حالًا من الحجّة. جثت قربها وحضنتها بقوّة وقبّلت رأسها ونظرت إلى الضابط المسؤول نِظرةً تاهت بين غضب ولوم وتفهّم وقبول وقالت والحزن يعتصر قلبها:

beirutonium high resolution photos.indd 18 9/20/2021 10:47:14 AM

– الحمد لله على سلامتك! دعيني أساعدك فأنقلك إلى المستشفى.

– لا أريد أن أبرح مكاني، أريد وحيدي! أين أنت يا ولدي؟ بالله عليك يا محمّد... تلطّف بقلب أمّك وأجبني..

كانت تصرخ منادية ولدها بما تبقّى لها من صوت حزين مفجوع يكتنز ألمًا لا يحتمل. عندها فهمت مريم حكايتها، وسألت الضابط:

– لم لا تسمح لها بالدخول؟ أنا أيضًا أريد البحث عن والدي، هو رجل إطفاءٍ وكان هاهنا لحظة الانفجار...

– آنستي.. لا يمكنكما الدخول! الأوامر تقضي بمنع دخول أيّ كان!

– أيّ وحش بشريّ أصدر تلك الأوامر؟ أمثاله جرّدتهم الحياة من العاطفة ومسختهم أشباه بشر!

– لو سمحت... انتبهي لألفاظك!

– ألست أخي في هذا الوطن؟ ما قيمة الأوامر العسكريّة أمام المأساة الإنسانيّة؟ إننا هنا لنبحث عن ذوينا وأحبائنا، فأيّ أوامر ترضى بحرق قلب والدة تتفجّع وفتاة تخاف يُتمَ أخوَيها الصغيرَين فقد يكبران بلا والد يرعاهما في هذا العالم المجنون؟ إنّي توقّعت أن تحمينا وتساعدنا وأن تحتضن هذه الحجّة المسكينة! ألست ترى فيها حزن والدتك وألمها؟ أكنت ستذعن لأوامرك لو أنّ والدتك يُدميها هذا الظرف العصيب؟ ولو كانت أختك مكاني تبحث عن والدها أكنت ستصدّها أم تحملها بين ذراعيك للبحث عنه؟ رجاءً، لا تحدّثنا بما تمليه عليك بذلتك.

beirutonium high resolution photos.indd 19 9/20/2021 10:47:15 AM

تقطّع صوت مريم وغسلت بدمعها وجهها المدمّى... ثمّ بدأت تظهر علامات التأثّر على محيّا الضابط ولاقى الدمع أيضًا طريقه إلى خديّه فحاول أن يخفيه. ففي المؤسسة العسكرية لزام عليهم أن يكونوا أشدّاء أكبر من المصائب، إلّا أنّ ما يواجهه الآن أعنف بكثير من هول حرب أو أخطار أمنيّة فمعركته التي أمامه ليست عادية، هي معركة أخلاقية وصراع بين الإنسانيّة والصّنميّة. قبضت مريم على يدَيه القويتَين في حين كانت أمّ محمد جاثية آنّةً على رجلَيه. رفع سلاحه وعلّقه على كتفه إذعانًا، وأمسك بيد مريم قائلًا لها: «لا تقلقي»! محاولًا الصبر على الرغم من حزنه لهول الفاجعة. جثا قرب الحجّة المتنهّدة وأمسكها بيده اليسرى واضعًا اليمنى فوق رأسها وجذبها نحوه والدمع مغرورق في عينيه.

– تصبّري يا امرأة، اسمي لبنان. وبإذن الله ستجدين ولدك وأنا سأساعدك في ذلك. أغفري لي موقفي فقد جعلتك تجثين على الأرض. حسبتُ لوهلة أنّ التوجيهات والأوامر العسكريّة ثوابت في أثناء الخدمة لا يمكن كسرها، ونسيت أنّ أوامر الأرض لا يمكن لها أن تتخطّى أوامر السماء. قد أوصانا الله، عزّ وجلّ، بالمحبّة وحفظ النّاس ومساعدتهم وعمل الخير. ولو كانت مساعدتي لك ستفقدني وظيفتي فإنّني مستعدٌّ لذلك لتكون تضحيتي عملًا صالحا هنا وتوبة مقبولة في السماء. أرجوكِ... سامحيني.

تنهّد لبنان وهو يحتضن الحجة ويبكي كطفل صغيرٍ يمزّقه الألم. اقتربت مريم منه مربّتةً كتفه: «باركَك اللهُ يا بَطل!» ومدّت يدها لتساعد أمّ محمد على النهوض وهمّوا جميعًا للبدء في عملية البحث.

– تعرّفتُ إلى الحجّة ولم أعرف بعدُ اسمَكِ.

beirutonium high resolution photos.indd 20 9/20/2021 10:47:15 AM

- مريم... أنا أسرعت من الأشرفية بعد أن تدمّر مكان عملي ومنزلي بل المنطقة برمّتها. إنّ والدي أبا شربل رجل إطفاء وكان قد أرسل إليّ مقطعًا مصوّرًا عن الحريق قبل الانفجار الكبير بلحظات. وأعتقد أنّه في الداخل ويجب عليّ أن أجده.
- المنطقة دمارها شامل والركام في كلّ مكان. لن تكون عملية البحث عن ناجين ومفقودين سهلة أبدًا فالخطر ما يزال راهنًا.
- ما قيمة حياتنا يا لبنان حين نخسر أحباءنا أو نرضى أن نتعايش مثقلين بالندم والتهاون؟ إنّنا نبحث عمَن يهيم به القلب وتخاف من فقدانه الروح، هذا الألم الذي يعصف بنا لأشدّ هولًا من آلام الجسد فالروح مثخنة بجراحها.
- صدقتِ يا حجّة لكن أين ستبحثين؟! كيف سنجد ابنك والدمار قد شلّع المرفأ حتّى اختفت معالم المكان تمامًا؟
- إنّ ابني يعشق غروب الشمس ويفتنّ به، هو ينهي عمله قرابة الخامسة تقريبًا ليذهب بين السادسة والسابعة إلى مصطبة مرتفعة في المقلب الآخر للمرفأ حيث يتأمّل الروعة من فوق الحيد الحجريّ. قد راسلني دومًا من هناك وما ضنّ عليّ بالصور، إنّني متيّقنة من وجوده حيًّا، أشعر به في مكانٍ ما فهو ما يزال على قيد الحياة! إبني محمّد بطل وسيقاوم الموت لينتصر بإيمانه وحبّه للحياة وشوقه لي. أسمعه كأنّ صوته يصدى في أعماق روحي. أنا حقًّا أسمعه يناديني.

بكت الحجّة بكاء مرًّا وراحت تزداد تفجّعًا وقد كان في نظراتها خوف وحبّ وحنان وآلام ومشاعر لا يمكن كبتها. تضايقوا جميعًا لكنّهم

beirutonium high resolution photos.indd 21 9/20/2021 10:47:15 AM

عقدوا العزم على دخول المرفأ للبحث عن محمّد وأبي شربل، وما هي إلّا ثوانٍ حتى رنّ هاتف مريم فرفعته:

– آلو... آلو.. أكاد لا أسمع شيئًا... أمّي، ما أصابك؟ لا أفهم كلمة ممّا تقولينه!

حدّثتها الأمّ بصوت مفجوع وكلام متلعثم. استمرّت بالبكاء والنواح ومريم تسألها باكية أيضًا كأنّها تنتظر منها سماع خبر مؤسف، فأخذ خالها الهاتف:

– مريم... مريم... أنا خالك، أين أنت؟ هلمّي وعودي الآن إلى البيت.

– قد وصلت إلى المرفأ للتوّ وسأبحث عن والدي! وبشفاعة العذراء قُدّر لي أن ألتقي لبنان وهو ضابط محترم سيساعدني في بحثي عنه.

– مريم حبيبتي، أعرفك قويّة وأريدك أن تكوني كما عهدتك...

توقّف الزمن، جمُد الوقت فأطبقت الدنيا عليها وقد نزل كلام خالها كالصاعقة... حاولت أن تجيبه فأحسّت أنّها بكماء وأنّ قلبها يتقطّع...

– مريم قد اختار المسيح لوالدك عالمًا أفضل من هذا العالم. إنّ والدك الآن يجاور الربّ. وجدوا جثّته ونقلوها إلى مستشفى الجامعة ونريد أن توافينا إلى هناك... أنا ذاهب مع والدتك الآن...

– يا ربّ! مع آلامك يا يسوع المسيح! يا عذراء... يا مار شربل... أعينوني على مصابي... رحمك الله وأسكنك فسيح فردوسه....

– ماذا حصل يا ابنتي؟! ما الذي سمعتِه؟ أيّ فاجعة حلّت بكم؟

beirutonium high resolution photos.indd 22 9/20/2021 10:47:15 AM

– قد وجدوا جثّة والدي ونقلوها إلى مستشفى الجامعة!

جَثَت مريم على الأرض، ومدّت يدَيها رافعةً رأسها إلى السماء وقد تلألأ البريق في عينَيها، فكانت كما الملاك الّذي هبط على الأرض ليرأف بحال الخلق، وكرّرت عبارة واحدة مرّة تلو الأخرى: «لتكُن مشيئتك يا رب... لتكُن مشيئتك يا رب...» عندها ضمّتها أمّ محمد وراحت تقبّل رأسها وتهدّئ من انفعالها طالبة لها الصبر والاعتصام بحبل الإيمان. أخذت تتلو على مسمعها سورة الفاتحة من القرآن الكريم وبعض الآيات، بينما لبنان يقف قربهما وقلبه في نحيطٍ، متسائلًا في تلك اللحظات إن كان سيتمكّن من نسيان هذه المشاهد الأليمة.

مضى بضع لحظاتِ ألمٍ وبكاء ومواساة بين أمّ محمّد ومريم، وإذا بها تقف على قدمَيها ماسحةً دموعها، ممسكةً بيد الحجّة قائلة:

– يا حجّة تعالي فنجدَ ابنك... كما سمعتِ. هيّا بنا... لن أتركك وحدك تبحثين عن ولدك. من واجبي أن أساندك وأن أقف إلى جانبك. لقد عرفنا مصير والدي وتلك مشيئة الربّ؛ والآن يجب أن نبحث عن الأحياء والمفقودين لعلّنا نخفّف المآسي عن قلوب ستثقلها الأحزان ويروّعها فراق الأحبّة.

– حماك الله وحرسك يا ابنتي فيك أخلاق سامية وإرادة صلبة وإيمان قويّ.

احتضنت أمّ محمد مريم احتضان الوالدة لابنتها، وأخذتا تبكيان طالبتَين الرجاء من الله كلّ حسب عقيدتها وتعاليم دينها، في حين وقف لبنان متعجّبًا من أمر تلك الفتاة المؤمنة القويّة التي تخطّت آلامها حتّى تقف إلى جانب سيّدةٍ لا تعرفها، فكانت قد علت فوق هول مصيبتها. ناجى نفسه في السرّ: «لن نفقد الأمل بقيامة هذا الوطن

beirutonium high resolution photos.indd 23 9/20/2021 10:47:15 AM

وإعادة بعثه من جديد ما دام يحتضن أرواحًا إنسيّة سامية توّاقة إلى الحياة من كلّ الطوائف والملل».

أشار النقيب إلى مساعده كي يتسلّم المسؤوليّة نيابة عنه وأخبره أنّه ذاهب لمساعدة الحجّة في إيجاد ولدها:

- أسلّمك موقع المسؤوليّة. عليك الآن حماية هذه النقطة الأمنية وتنفيذ أوامر القيادة وإعطاء التوجيهات الملائمة للعناصر. عامل الناس بالرأفة. تفهّم مآسيهم وساعدوا الجرحى متى كان لكم في ذلك سبيل. أنتم اليوم ضبّاطٌ برتبة مواطنين. انتبه جيّدا. وفي حال لم أعد لأيّ سبب كان أخبر القيادة بما جرى وقل لمسؤوليها إنّ لبنان الإنسان عاش في خدمة الوطن وما كان ليعصى الأوامر العسكرية إلّا أمام هيبة الأقدار السماوية وذلك في خدمة الإنسانيّة.
- سيّدي دعني أرافقك لعلّني أساعدكم في البحث.
- لا. إبقَ مكانك واحرص على تنفيذ ما طلبته منك. إننا ذاهبون إلى ناحية معيّنة في المرفأ حيث تحسب الحجّة وجود ولدها. سأذهب معها لأساعدها وأحميها.
- أمرك مطاع...

انطلق الثلاثة صوب الداخل وقد توسّطت الحجّة مريم ولبنان، فسألها طالبًا صورة ولدها حيث وقوفه في المرفأ منتظرًا الغروب، فقد يتبيّن موقعه جغرافيًّا. غير أنّ الحجّة فقدت هاتفها لحظة الانفجار وهرعت للبحث عن ولدها وما اكترثت له. أحثّها على تذكُّر تفاصيل معينّة من الصور إلّا أنها كانت فاقدة التركيز. حار لبنان في أمره، فماذا سيفعل؟ من أين يبدأ؟ ينظر حوله في كلّ مكان فلا يجد إلّا خرابًا ودمارًا

beirutonium high resolution photos.indd 24 9/20/2021 10:47:15 AM

وكأنّه يبحث عن إبرة في كومة قشّ. ثمّ تدخّلت مريم لتهدّئ أمّ محمد وتساعدها على التذكّر:

- يا حجّة، تردّدون في الإسلام عبارة في ما بينكم تثنيكم عن الغضب فصلّي على النبيّ.
- عليه الصلاة والسلام.
- لا شكّ أنّ ولدك يحبّك جدًّا ويعتبرك أيضًا صديقته المقرّبة.
- يحبّني ويخاف عليّ، كان دائما يرسل إليّ صوره وخاصة عن الغروب مردّدًا: «أنظري يا أمّي، ما أجمل الغروب! ما أعظم الطبيعة في تجلّيها! وما الغروب إلّا مبعث الأمل للناس، فهو يبشّرنا ببداية جديدة ننتظرها وتدفعنا إلى التعلّق بالحياة أكثر».
- ما أعذب هذه الكلمات! لا بدّ أنّه شاب ذكيّ ومرهف الإحساس.
- قد كان يدرس علم التاريخ بالتوازي مع عمله ليؤمّن مصروفه ومصروف البيت. إنّه شاب مثقّفٌ وصلب الإرادة.
- إذًا، لا بدّ أنّه تنبّه للانفجار الأوّل فاحتاط ليبقى على قيد الحياة لاسيّما أنّه يقف على مسافة بعيدة بعض الشيء عن الموقع، فلربّما كانت فرصته كبرى بالنجاة.
- أتعتقدين هذا؟
- وبإذن الله سنجده سويًا. أليس كذلك يا لبنان؟
- أصبت يا مريم! سيكون محمّد حيًّا معافًى.

beirutonium high resolution photos.indd 25 9/20/2021 10:47:16 AM

علت ابتسامة الأمل ثغر الحجّة رغم آلامها الكثيرة وأجواء الحزن والخوف والموت والرعب المخيّمة في المكان. فاقتربت مريم منها:

- ألم تتذكّري أيّ تفصيل يمكن أن تكوني قد رأيته في الصورة؟
- الذاكرة ضبابيّة يا ابنتي ولا أحسب الأمر يفيدنا...
- أنا لم تكن لي خدمة سابقة هنا وأكاد لا أعرف المنطقة فقد أتبيّن ممّا تذكرينه أمرًا يسعفنا في البحث.
- أتذكّر قوله: «أنا جامحٌ فوق الوحش الأزرق أرنو إلى الشمس في غروبها». لا أعلم لعلّه قصدَ بناءً كبيرًا أو مجسّمًا معيّنًا أو تمثالًا ضخمًا... أنا حقّا غافلة عن الأمر.
- لا تماثيل على المرفأ ولا مجسّمات. إنّ ما يضمّه المرفأ لا يشير إلى كلامه، وأنا أظنّه كان يخلو في مكان بعيد عن الناس وسموم ألسنتهم.

ضاعت نظرات أمّ محمد بين الممرّضة والضابط وهما الباحثان عن أمل بين الركام. تتأمّلهما ولا تصدّق ما تراه، فقد بعثا الأمل في نفق اشتدّ ظلامه في هذه الأيّام. قد تخلّى الضابط عن موقعه وخالف أوامره لأجلها، والفتاة تحاول أن تتخطّى أسى رحيل والدها لتقف كالأرزة شامخة ثابتة تجابه الموت. وجدت في قلب تلك الشابة المسيحيّة إيمانها الإسلاميّ، ووجدت في ذاك الضابط المندفع الشهم كرامة الوطن ونخوة رجالاته وخشبة الخلاص لقيامة جديدة. وفي أثناء البحث وحين شردت الأعين يمنة ويسرة كسر الصوت الصمت المطبق فصرخت مريم:

- وجدته!

beirutonium high resolution photos.indd 26 9/20/2021 10:47:16 AM

– ابني؟

– بشفاعة العذراء سنجده يا حجّة! لكنني قصدت الوحش الأزرق الّذي حدّثك عنه ولدك.

– أين؟

– هناك في الطرف القصيّ من المرفأ... أنظر يا نقيب إلى تلك الرافعات الزّرق. قد تنعّمت بها جيدًا وأعتقد أنّه وصفها لضخامتها وارتفاعها، وربّما كان يذهب ليتسلّقها فيشرف من علو على الغروب.

– تحليل منطقيّ، أحسنت يا مريم!

أمسك لبنان يد الحجّة حرصًا عليها وكأنّها أمانة الله أو وديعته عنده، فما رآه من تضحية لدى مريم أخجله وأضرم نار الإنسانية الكامن في سرّه. فخوف الوالدة على ولدها وتخطّيها آلامها بحثًا عنه رأى فيهما رسالة أمومة صادقة تستحقّ الاهتمام والتضحية.

ذهب الثلاثة وحين وصلوا قرب الرافعات رأوا الدمار متفشّيًا فمن شدّة عصف الانفجار تطايرت الحاويات كالورق وانقلب بعضها فوق بعض، غير أنّ الرافعات لم تتضرّر وهذه إشارة جيدة بالنسبة إليه. فاقترب من مريم وهمس لها:

– الأمر ليس سهلًا... علينا أن نضيّق دائرة البحث لنستفيد من وضح النهار قبل حلول الظلام. وعلينا أن نحدّد رافعة كان محمد يقف فوقها. ولا تنسي أنّه يجب أن نحتسب قوة عصف الانفجار. فلا شكّ أنّها دفعت بالشاب من فوق. ألا تعتقدين ذلك؟!

beirutonium high resolution photos.indd 27 9/20/2021 10:47:16 AM

– يا نقيب أنت الأكثر خبرة بيننا وحتمًا تعلم ما يخفى عنّا.

– رجاءً ناديني باسمي. اليوم رُقّيت إلى رتبة إنسان، ولا مرتبة تعلوها. أخجل حين تناديني برتبتي فلا قيمة لموقع أو منصب أمام سموّ الإنسانيّة.

– أقدّر كلامك كثيرًا وأعتزّ به. هيّا فلنتابع بحثنا.

– يا أمّ محمد، ألمحْتِ قبلًا إلى هذه الرافعات الزرق ونحن نظنّ أنّ ولدك كان يقف فوقها. هل تتذكّرين تفصيلا قد يفيدنا في عملية البحث؟

– لا أعلم! لا أستطيع التركيز! أعذرني يا بنيّ... لكنّه اليوم أرسل لي أحجية لم أفهمها ولم أعرها الاهتمام فقد قال لي: فوق جبين الشمس في ملعب الريح وعلى كتفَي القائد جسمي يستريح...

– لا شكّ أنّه قصد هذه الرافعة تحديدًا فهي القائد المنشود. لنبدأ بحثنا قربها مشيرة بيدها إلى الرافعة الأولى... سأبتعد ولبنان للبحث بشكل دائري حول الموقع ومسح المكان. حاولي أن تهدئي وتبحثي هنا تماما.

– يكاد قلبي يشقّ صدري سأناديه بما ملكت من صوت.

– لم طلبت منها البقاء تحت الرافعة؟ كيف سنتركها وحيدة؟

– لا يمكننا أن نخاطر في أن تجد ولدها ممزّق الأشلاء أو محروقًا أو ميْتًا يا لبنان. فهي امرأة محطّمة المشاعر وقد لا تتحمّل المشهد.

beirutonium high resolution photos.indd 28 9/20/2021 10:47:16 AM

– أجدتِ مرة أخرى. حسنا هيا بنا.

تهامس الاثنان وشرعا يبحثان عن الشاب آملَين أن يثلجا قلب والدة مثقلة بالأحزان وراحا يناديانه: «يا محمّد... أتسمعنا؟ أمِنْ مجيب»؟

وقد كانت الساعة حينها تشير إلى الـ٦:٢٠ مساءً...

beirutonium high resolution photos.indd 29 9/20/2021 10:47:16 AM

٥:٣٨ مساءً

«الأشرفيّة قبل الانفجار»

مريم لبنانيّة مسيحيّة، تعمل ممرّضة في مستشفى الأشرفيّة[١]. شابة نشيطة بلغت الثانية والعشرين من عمرها، تتابع دراستها وتساعد عائلتها في هذه الظروف المعيشيّة الصعبة. والدها رجل إطفاء يعمل في مركز بيروت الرئيسيّ ووالدتها ربّة منزل. لها شقيقان يصغرانها أحدهما في العاشرة والآخر في الخامسة عشرة.

١- لم نحدّد مستشفى خاصًّا أو رسميًّا لأنّ حبكة الرواية متخيّلة.

beirutonium high resolution photos.indd 31 9/20/2021 10:47:16 AM

بدأت الشمس تميل صوب المغيب لكنّ الحركة في شوارع الأشرفية لا تغيب، أكان نهارًا أم ليلًا. فالأشرفيّة هي المكان العالي المُشرف على ما دونِها من الأمكنة. هي مدينة تقبع على تلّة في شرق العاصمة اللّبنانيّة بيروت. منطقة نابضة بالحياة، فيها الفنادق والمراكز السياحية، كذلك المكاتب التجاريّة والخدماتيّة على أنواعها، المستشفيات، المدارس، الكنائس وأبرزها الكنيسة الأرثوذكسية سان ديمتري أو مار متر. إنّها منطقة ذات صبغة «مسيحيّة» لكن تأهلها كافة الطوائف اللبنانيّة. قد حصلت على هُويّتها المسيحيّة إبّان الحرب الأهلية اللّبنانية حيث كانت نقطةَ تمركزٍ للأحزاب المسيحيّة.

بينما كانت تجلس خلفَ مكتب الاستقبال في القسم المخصّص لحديثي الولادة، نظرت مريم إلى الساعة لتجد أنّ الوقت قارب الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين. قد اقترب موعد صلاتها اليومية قرب مزار العذراء خارج مبنى المستشفى حيث اعتادت أن تتلوَ جزءًا من صلاة الوردية[٢] لعشر دقائق. فأخذت في إنهاء الأعمال الورقية بين يدَيها المسؤولة عنها ورتّبت أوراق الفحوصات وجداول زيارات المرضى كذلك جداول العمليات وخدمات التمريض في كافّة غرف القسم.

وبينما هي جالسة منغمسة في العمل، رنّ هاتفها. إنّه والدها ويريد أن يطمئن إليها كعادته في كلّ يوم قبل ذهابها للصلاة وهو الّذي يرى فيها زينة حياته وغنج عائلته، هي الشابة التي يعتمد عليها في أمور كثيرة. وما أن رفعت السماعة وفتحت الخط وقبل أن تنطق ببنت شفة عاجلها بالقول:

٢- الوردية المقدّسة أو المسبحة الوردية هي عقيدة وصلاة في الكنيسة الكاثوليكية، تتألّف من خمسة عشر بيتًا يتأمّل خمس منها في الفرح وخمس في الحزن وخمس في المجد، وقد أضاف البابا يوحنّا بولس الثاني عام ٢٠٠٢ خمسة أسرار جديدة تتأمّل في النور.

beirutonium high resolution photos.indd 32 9/20/2021 10:47:17 AM

- كيف حالك يا غنّوجتي ... يا دلّوعتي ويا طفلتي الحبيبة؟
- أصبحت شابة، موظّفة، طالبة دراسات عليا وما زلت تناديني «طفلتي»!
- مهما تكبري فستبقين في نظر والدك طفلته الحبيبة الوحيدة التي يرى في عينيها جمال الكون.
- أتعلم يا والدي... أظنّني لن أتزوّج...
- حبيبتي أريد أن أفرح بك!
- لا أعتقد أنني سأجد رجلًا يهتمّ بي ويخاف عليَّ مثلك!
- بنيّتي، لا تقولي هذا الكلام. سيأتي من هو أفضل منّي لأنّ الربّ محبّة وهو يساعدنا حتّى نختار مَن يحبّنا. أنت طافحة بالمحبّة، ولك أجمل الأسماء وأقدسها. تسيرين في صراطٍ مستقيم، شابة ذكية، كادحة ومحترمة، ولا شكّ أن يسوع سيساعدك ويكون إلى جانبك كيما تجدي من يستحقّك. وهذه أمّك، على الرغم من أنّها لا تضاهيكِ إلّا أنّها وفّقت بي، وهذا لحسن حظها.
- أتصرّ على هذا الكلام يا أبا شربل حتى أسألها رأيها في الأمر؟
- لا، لا أرجوك يا ابنتي لا تفعلي! قد كنت أمازحك فوالدتك أفضل النساء ولحسن حظي أنّني حظيت بها!
- ما أحسن قولك!

تضاحكا قليلًا فالحوارُ بينهما غبطة، والفرح كلّه في الأجواء فأينما تحلّ مريم تحلّ طاقتها الإيجابية معها، كائنًا من كان الّذي يحادثها. ولا شكّ أنّه سيشعر بالسكينة لما تعكسه روحها من سلامٍ كامنٍ فيها... تلك المخابرة مع والدها كانت الأطول بين سابقاتها، وعلى الرغم من

beirutonium high resolution photos.indd 33 9/20/2021 10:47:17 AM

انشغالها أرادت أن تنهي واجباتها الوظيفية لتلحق بصلاتها في الساعة السادسة كما جرت العادة. إلّا أنّها كانت تضحك وتتبادل المزاح معه، وتخبره عن يومها وتسأله عن يومه وكأنّها لم تسمع صوته منذ زمن أو أنّه لم يوقظها بقبلة حنان على جبينها عندما يعود من عمله تلك الليلة. واستمرّت المحادثة الهاتفية بينهما فسألها:

- كيف الدراسة الجامعيّة؟
- تأجّلت الامتحانات بفعل جائحة كوفيد [٣]١٩ المتفشّية في لبنان، إنّني متشوقة حتّى أنهي دراستي لأتمكّن من الهجرة. هل نسيت؟
- لم أنسَ، لكنني لم أسرّ لموضوع الهجرة وقد حسبت أنّ ابنتي قد بدّلت رأيها وعزفت عن قرار هجرة الوطن وعائلتها التي تحبّها كثيرًا، وربّما سوف تبحث عن مستقبل جميل هنا معنا وبيننا.
- ما الّذي تغيّر في لبنان يا أبي حتى أبدّل رأيي؟ ما يزال النظام السياسي عاقًّا، الفساد ينخر مؤسّساتنا، والمسؤولون يحسبون المواطنين أرقامًا انتخابيّة. ما تزال الوساطات تسيطر على عملية التوظيف فنرى معيار الكفاءة غائبًا تمامًا ناهيك عن الآفات التي تقف عائقًا أمام قيام منطق الدولة في لبنان. عن أيّ مستقبل محليّ تحدّثني؟ سأتخرّج وأرحل لأعيلكم وأهتمّ بكم، الأمل قد مات في وطني يا والدي، أنتم أهلنا ولم تورثونا

٣- كوفيد-١٩ هو مرض معد يسببه آخر فيروس تم اكتشافه من سلالة فيروسات كورونا. ولم يكن هناك أي علم بوجود هذا الفيروس الجديد ومرضه قبل بدء تفشيه في مدينة ووهان الصينية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٩. وقد تحوّل كوفيد-١٩ إلى جائحة عالميّة تؤثر في العديد من بلدان العالم.

beirutonium high resolution photos.indd 34 9/20/2021 10:47:17 AM

إلّا حروبًا وتعصّبًا طائفيًّا، إنّ جيلنا قد ملّ هذه النزاعات وهو يأمل أن يحيا بعيدًا باحثًا عن السلام والاستقرار.

– تُدميني بهذا الكلام يا ابنتي.

– سامحني... لكنّها الحقيقة. أنا مستعدة لأفعل أيّ شيء حتى أسعدك وأدخل الفرحة إلى قلبك.

– تغاضي عن فكرة الهجرة فتسعديني.

– أبي... دائمًا ما يتعبنا الحوار ولا نخلص إلى نتيجة.. سنعالج هذا الموضوع لاحقًا. حدّثني الآن عنك، كيف العمل في المركز؟ ألم تنتهي ساعات عملك اليوم؟ لماذا لم تعد إلى المنزل بعد؟

– أردت البقاء قليلًا مع زملائي، شعرت برغبة في مجالستهم وتمضية بعض الوقت معهم. أعتقد بأنني سأعود إلى المنزل قبل السابعة.

– حسنًا، سأذهب بعد قليل إلى مزار العذراء لأتمّم صلاتي اليومية ثمّ سأنهي بعض الأعمال المكتبية وأعود في الثامنة تقريبًا.

– العشاء على حسابكِ اليوم؟

– «لعيونك»... لك ما تطلب. سلامي لكافّة زملائك في العمل. أنتم أبطال الوطن، ترمون بأنفسكم في أتون النار من أجل الآخرين. وهذا عمل لا يقدر عليه كثيرون.

– سأنقل سلامك يا ابنتي... مريم... مريم... اذكريني بصلاتك واطلبي لي الغفران. وتذكّري دائمًا أنّني أحبّك جدًّا وسأبقى أحبّك إلى أن ينتهي العالم.

beirutonium high resolution photos.indd 35 9/20/2021 10:47:17 AM

مازحت مريم والدها في حين تغيّرت نبرته وكأنه يخشى ألّا يرى ابنته بعد هذا الاتّصال. شعور غريب راوده وعصف في قلبه فأراد أن يحمّلها رسالة أخيرة:

– لا أريد أن أختم الاتّصال. أحبّك يا نعمتي السماوية فلتحمك العذراء يا ابنتي.

– تقلقني كلماتك... أَصادَفَتْك مشاكل في العمل؟ أتشعر بألم أو وعكة صحيّة؟ أخبرني ولا تخفِ الأمر.

– لا... لا تقلقي. ربما لأننا تحدّثنا عن هجرتك ورحيلك عنا. أعتقد أنني تأثّرت بعض الشيء... أريدك أن تعلمي أنّني فخور بك وبإنجازاتك وبأدبك وطموحك ونشاطك. أنت شابة مسؤولة، فيوم ولدتِ فرحت بقدومك إلّا أنني لا أكتم سرًّا ولا أخفي رغبتي السابقة فقد تمنّيت أن يكون بكري صبيًا ليهتمّ بالعائلة من بعدي. لكنّني الآن أقولها لك وبكلّ فخر إنّني نادم على ما شعرت به يومها لأنّك أثبتِّ لي أنّه يمكنني الاعتماد عليك وها أنت تشاركينني همّ العائلة بوجودي، فلا خوف عندي على أخوَيك وأمّك لأنني أعلم أنك حاضرة في البيت.

– أطال الله بعمرك! لا قيمة للبيت من دونك فأنت عماده وركنه. لا أحد يمكنه أن يأخذ مكانك. وما تزال الحياة تليق بك فأنت شيخ الشباب. أحبّك كثيرًا، أعذرني الآن فقد شارف وقت الصلاة وعليّ أن أنهي بعض الأعمال المكتبية. إلى اللقاء في المساء.

– لا تنسي العشاء!

– أتمنّى أن تكون قد أحببت والدتي كما تحبّ معدتك يا والدي.

beirutonium high resolution photos.indd 36 9/20/2021 10:47:17 AM

– الإثنان غاليان على قلبي جدًّا. أتركك في رعاية يسوع المسيح يا وردتي.

– حماك الربّ.

أنهت مريم الاتّصال بوالدها وكانت الساعة السادسة إلّا بضع دقائق، تبقّى لمريم وقت قليل حتى تنهي ما بين يدَيها لتلحق صلاة الوردية خارجًا، حيث تحتاج إلى خمس دقائق تقريبًا لتنزل من المستشفى وتصل قرب مزار السيّدة العذراء. وبينما كانت تنهي أعمالها وصلت إلى مكتبها زميلتها باميلا مرتبكة.

– كيف حالك يا صديقتي؟ ألن تذهبي لتأدية صلاة الوردية؟

– بلى... أخّرني اتّصال والدي بعض الشيء. وتابعت توضيب أغراضها على عجل ململمة ما تبعثر فوق المكتب من أوراق المستشفى.

– أشعر أنّ قلبي منقبض اليوم.

– ما أصابك وأبي؟ من يسمعكما تتحدّثان فقد يقول إنّ هذا اليوم «أرماغادون»[٤].

– أشاركني والدك الإحساس عينه؟

– شعرت كأنه يحدّثني للمرّة الأخيرة، لا سمح الله. وها أنت أيضًا تشعرين بقلق وانقباض في قلبك. أقلقتماني... ثقي بيسوع فادي الخلق، اطلبي شفاعة العذراء في كلّ حين وواظبي على الصلاة وستشعرين بالسلام دائمًا. والآن اعذريني يا صديقتي الغالية، يجب أن ألحق صلاتي.

٤- مصطلح عام يستخدم للإشارة إلى نهاية العالم. وفي بعض التفسيرات المسيحية، إنّه اليوم الّذي سيعود فيه المسيح إلى الأرض للتخلّص من الدجّال.

beirutonium high resolution photos.indd 37 9/20/2021 10:47:17 AM

دائمًا ما تحاول مريم أن تزرع الأمل والفرح في قلوب أحبّتها، فهي تشدّد على مسألة الصلاة والعودة إلى المسيح الفادي في وقت الأزمات أو حين الشعور بالقلق؛ حتى أنّها دائمة الابتسامة وتبشّ أمام وجوه كلّ النّاس وكأنّها سفيرة السلام والمحبة في بيروت. أقفلت جارور مكتبها بعدما وضعت ملفّاتها كافّة داخله، استأذنت باميلا لاضطرارها ترك المكتب والتوجّه نحو مزار السيّدة. فقابلتها زميلتها بالمودّة طالبة منها أن تذكرها في صلاتها.

اتّجهت نحو المصعد، وفي انتظار وصوله، وقف إلى جانبها رجلٌ يعتريه الشيب ويقضّ الحزن وجهه. نظرت إليه فأحسّت أنّه بمقام والدها، فما استطاعت كبت كلامها وسألته بعد أن دخلا المصعد سويًّا:

- يا عمّ أعذر تطفّلي. لم شحبَ وجهك؟ هل بإمكاني مساعدتك؟
- قد أتيت يا ابنتي من الجنوب لزيارة شقيقي الأصغر وقد ضعف قلبه ووهن جسده فأتينا به إلى هذا المستشفى لصورة غير متوافرة في منطقتنا وتبيّن لنا أنّه يعاني مرضًا خبيثًا. هذا ما أخبرنا به الطبيب المعالج فشعرت بالضيق وقد أردت الخروج لأتنشّق بعض الهواء النقيّ مخافة أن أنهار أمام عائلته وإخوتي.
- لا تخف! اتّكل على ربّ السماء وسلّم أمرك له. هو خالقنا، يحبّنا ويهتمّ لأمرنا ويساعدنا في وقت الشدائد، ففي الصلاة نجاتنا. أنت تحبّ شقيقك وعائلتك، وما تضايقك إلّا لما خالجك من مشاعر حبّ وحماية وهذا دليل إنسانيتك، ومن مثلك لا يتخلّى الربّ عنه أبدًا.
- أشكرك على لطافة الكلام قد أثلجت قلبي بعض الشيء.

beirutonium high resolution photos.indd 38 9/20/2021 10:47:18 AM

- إنني ذاهبة للصلاة، وقد عقدت العزم أن أذكرك وأذكر شقيقك في صلاتي وسأطلب من أمّنا العذراء أن تشفع له وتخلّصه من مرضه وتعافيه. ما اسمك يا عمّ؟ وما اسم شقيقك؟

نظر الرجل إلى مريم، فرأى المحبّة الصادقة تتجلّى في عينيها واستطاع الشعور بالسلام الكامن في قلبها. ببضع كلملت أدخلت إلى قلبه الطمأنينة فأردف:

- علي... وشقيقي مرتضى.
- سأذكركما في صلاتي وأطلب من السيّد المسيح أن يخلّصكما من الغمّ والهمّ وأن يعافي شقيقك من مرضه. وعسى أن تكون صلاتي مقبولة.
- لا أريد أن أعكّر عليك صلاتك، أنا مسلم وأنت مسيحية، لربما كانت الصلاة عنّا عبئًا عليك.
- نحن إخوة في الإنسانية ويسوع حثّنا على أن نحبّ جميع الناس. هو ملك السلام وصلاتنا القلبيّة لا تفرّق بين الأديان، يجب أن تكون نوايانا صافية بعضنا تجاه بعض وأن يكون إيماننا ورجاؤنا صادقين. أنا أشكرك لثقتك بصلاتي وإيماني واحترامك ديني، وهذا من مكارم أخلاق أرساها فيكم رسولكم الأعظم. وإنّ الله ليقبل الصلاة من الناس أجمعين فلا قيمة لهويّة الإنسان وانتمائه بعلاقته مع خالقه. جلّ الأمور أن يكون تقرّبنا منه شفافًا صادقًا ونابعًا من صميم القلب.
- تقاربين ابنتي الصغيرة عمرًا، وقد لقّنتني درسًا في المحبّة والتواضع وأزلت عن قلبي الغمّ. أتسمحين لي بمرافقتك إلى

beirutonium high resolution photos.indd 39 9/20/2021 10:47:18 AM

المزار خارجًا؟ قد أراحني كلامك وتولّدت فيّ رغبة في الذهاب معك لست أعرف سببها.

- تشرّفني مرافقتك لي يا عمّ علي، ما من خطر لتحميني منه فمزار السيّدة قرب البوابة الرئيسة يبعد بضعة أمتار عن المدخل، وصلاتي لن تطول كثيرًا فهي لدقائق قليلة...
- أعدك بأنني لن أزعجك؛ سأرافقك وأقف إلى جانبك فأنت تشعّين أملًا. لكن في حال كانت مرافقتي لك ستضايقك وتعكّر صفوَ صلاتك، أعتذر وأسحب طلبي...
- فرحتُ لأنك شعرت بالارتياح في أثناء الحديث معي وسأسرّ بوجودك إلى جانبي.

مشى علي إلى جانب مريم يوزّع نظراته في الأرجاء ويتحسّب لكل طارئ. يرافقها ويعاتب النفس إذ أصرّ على طلبه لكنّه ما علم حقًّا دافعه. حسبها كابنته أمّا مريم فقد سُرّت به وشعرت بالراحة لأنها سترفع صلاة إضافية هذه المرّة على نيّته وشقيقه مرتضى.

إنّها الساعة السادسة مساءً، وصلا أمام مزار السيّدة العذراء. ركعت مريم حاملةً مسبحتها لتبدأ صلاتها، بينما ابتعد عليّ عنها ليدخّن سيجارته كيلا يزعجها فهو تارة يقلقه وضع شقيقه المريض وطورًا يزداد إعجابًا بهذه الفتاة الصغيرة المسيحيّة التي أذهلته بصفاء قلبها وإنسانيتها على الرغم من المسائل الدينية والطائفية التي غالبًا ما وقفت عائقًا بين اللبنانيين. فالإنسان يخاف الآخر، يمسخ كلّ شخص حسب كوابيس رسّختها فيه ذاكرته اللبنانيّة. واللبناني في انتمائه الطائفي يجسّد حقًّا قصّة المرآة السحرية وقد وقفت قبالتها امرأة اغترّت بجمالها فإمّا حسنها وإمّا لا حسن في غيرها.

beirutonium high resolution photos.indd 40 9/20/2021 10:47:18 AM

لبنان الوطن... هذا البلد الّذي قدّر له الله تعالى أن يشكّل في ربوعه فسيفساء الإنسانية. والمشكلة في لبنان ليست الطائفية التي تعكسها تعدديّة أديان تجعل من هذا الوطن رسالة عالميّة، إنّما المشكلة في التعصّب الطائفيّ والتزمّت الأعمى اللّذين يعيثهما الساسة للسيطرة على مقدّرات الشعب كذلك فشل النظام السياسي في إرساء منطق العدالة والمساواة بين الأفرقاء كافّة. فلو كانت الطائفية هي السبب لما رأت مريم في هذا الرجل المسلم رجلًا بمقام والدها تريد ذكره في صلاتها، كذلك لما رأى فيها ابنة يحبّها ويخاف عليها ويريد أن يحميها.

في تلك اللحظات رسمت مريم إشارة الصليب وأحنت رأسها بخشوع متمتمةً: «باسم الآب والابن والروح القُدُس، الإله الواحد، آمين. أيتها البتول الكليّة الرأفة، سيدتي، إنّني أقدّم هذه الصلاة، على نيّة جميع عبيدك المتّقين الذين أرضوك بهذا الإكرام المقدّس فأسألك، أيتها السيّدة العطوف، أن تقبليني في شركتهم، وتقبلي منّي هذا الإكرام باستحقاقات فضائلهم، آمين.

... أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض. أعطنا خبزنا كفاف يومنا، وأغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر لمن خطئ إلينا، ولا تُدخلنا في التجارب، لكن نجّنا من الشرير، لأنّ لك الملك والقوّة والمجد، إلى أبد الآبدين، آمين.

أللهمّ بشفاعة مريم البتول، إرفع شأن كنيستك، واحفظ الرئاسة البطرسية، وكلّ مراتب الكنيسة، بحسن العبادة الحقيقيّة، آمين. السلام عليكِ يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الربّ معكِ، مباركة أنتِ في النساء، ومباركة ثمرة بطنك سيّدنا يسوع المسيح يا قدّيسة مريم يا والدة الله، صلّي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا، آمين. المجد للآب

beirutonium high resolution photos.indd 41 9/20/2021 10:47:18 AM

والابن والروح القدس كما كان في البدء والآن وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين، آمين»[٥].

لم تكن مريم لتتأخّر أكثر من عشر دقائق خارج مكتبها، لهذا كانت تؤدّي قسمًا من مسبحة الوردية وهي الصلاة الأحبّ إلى قلبها. وحين شارفت على الانتهاء تذكّرت أنّها ترغب في أن تشمل والدها وصديقتها باميلا إضافة إلى علي وشقيقه مرتضى في صلاتها. فأخذت تصلّي في سرّها:

«ربّي يسوع المسيح، أرجوك أن تصون أفراد عائلتي وتبعد عنهم كل شرّ، وأن تحمي والدي في عمله الخطر وأن تبقيه سليما معافى فرحا. أرجو أن ترفع الغمّ عن قلوب الضعفاء والبائسين ومنهم صديقتي باميلا وكذلك العم عليّ... أرجو أن تشفي شقيقه مرتضى وأن تعافيه من سقمه لتفرح عائلته به وتستكين بجواره. أتمنّى أن تقرّبني إليك، وتحبّبني بالناس أجمعين وأن تحببهم بي وتبعد الأحقاد والكراهية بين الأنام كلّهم. أرجو أن تساعدني في إتمام رسالتي في عملي، فمن خلالها أتقرّب أكثر إليك إلهي وذلك بمساعدة الناس وتخفيف آلامهم ومداواة مرضاهم.

أنت المحبّة الكاملة يا يسوع، اشملني وعائلتي وأصدقائي والناس أجمعين بمحبتك ورأفتك واعفُ عنّا لأننا نحن الخطأة الآن وفي ساعة موتنا آمين.

يا سيدتي العذراء، يا حنون يا مباركة، باركي وطننا الحبيب لبنان، واشفعي له عند الربّ ليرفع عنه الأمراض والأوبئة ويبعد الفاسدين والظالمين حتّى يستكين شعبنا المعذّب الآن وفي كلّ حين. آمين.

٥- جزء من صلاة الوردية المسيحية الرسمية والمعتمدة عند المسيحيين.

beirutonium high resolution photos.indd 42 9/20/2021 10:47:18 AM

...وفي تمام الساعة السادسة والدقيقة الثامنة، وفي لمح البصر، ضجّ في العاصمة صوت هدير كبير سبقه صوت انفجار ظنّ بعضهم أنّه خرق لجدار الصوت أو ربما صوت طائرة معادية تحلّق على ارتفاع منخفض. لم تكد تنهي مريم صلاتها وتهمّ للوقوف حتّى أحسّ عليّ بخطر محدق فحاذاها ليطلب منها الدخول إلى مكان آمن. وقبل أن يمسك بيدها وفي تمام الساعة السادسة والدقيقة الثامنة والثانية الرابعة دوّى انفجار كبير. وفي أجزاء من الثانية أطاح بالعاصمة عصف هواء مرعب هزّ الأبنية والأرض من تحتها فتهشّمت النوافذ ودُمّرت السيارات واقتلعت الأشجار وحلّ دمار لا يوصف في كلّ مكان.

لحظة سماعه الانفجار وبردّة فعل أبويّة عفويّة، حضن عليّ الفتاة ولفّها بذراعيه كأنه يظلّلها ليحميها من قطع الزجاج المتطايرة ورياح الغبار العاتية. ورغم ذلك ارتطم بهما لوح من ألواح الإعلانات الحديدية فأصابه بجروح خطرة في ظهره وقدميه، ولولاه لربما أصاب مريم وقتلها لأنّها لم تكن لتتحمّل بجسدها النحيل تلك الضربة.

انقشع الغبار، وبعد ثوانٍ هوجاء، لم تفهم مريم ما حصل. الصراخ يضجّ في المكان وقد تغيّرت معالم المستشفى ومحيطه. نظرت إلى مزار السيّدة العذراء فوجدته سليمًا لكنّ الزجاج المحيط به مهشّم والغريب أنّ دمًا يسيل على هيكل المزار الخارجي. عندئذ أدركت أنّ أمرًا جسيمًا قد وقع. ربّما هو انفجار داخل المستشفى أو قصف أعداء أو صاروخ أصاب منطقتها. استمرّت تتلفّت يمينًا ويسارًا حتى تعي ما حصل. وجدت العمّ علي مضرّجًا بدمه ممدّدًا يئنّ قربها وهو لا يستطيع الحراك. أيقنت أنه حماها بجسده من الزجاج والقطع الحديدية المتناثرة في الساحة الخارجية للمستشفى، وفي حين جرّح سمعها صوت أنين الناس وصراخهم جثت إلى جانبه:

beirutonium high resolution photos.indd 43 9/20/2021 10:47:19 AM

- أأنت بخير؟
- لا أستطيع تحريك جسدي، أشعر بألم يشقّ ظهري. قد لطمني شيء ثقيل... لا تقلقي يا ابنتي. فما أزال على قيد الحياة وأنا مسرور لأنّك بخير.
- لو لم تحمني بجسمك لأصبت أيضًا ورميت على الأرض جثّة هامدة. قد أنقذت حياتي.

إنه إلهك الذي به تؤمنين وإليه الصلاة ترفعين... هي العذراء الطاهرة التي تحملين اسمها وقد حمتك من الفاجعة. أمثالك يستحقّون الحياة ليبقى الأمل خفّاقًا فوق تراب هذه العاصمة.

اغرورقت عينا مريم وفاض ذرفها على خدّيها... كانت الصورة قاتمة حولها فالسواد تفشّى في المكان والدّمار والخراب عظيمان وبين الركام المصبوغ حُمرة صارت تُسمَع الأنّات وتعلو التأوّهات وتسير الجثث بلا هوادة.

beirutonium high resolution photos.indd 44 9/20/2021 10:47:19 AM

٥:٣٨ مساءً

«البسطة قبل الانفجار»

منطقة البسطة... واحدة من أشهر مناطق بيروت حيث تقطن الحجّة أمّ محمد. هي ربّة منزل تسكن داخل شقّة قديمة أهلتها منذ فترة طويلة مع زوجها وقد مات منذ أكثر من عشر سنوات. الشقّة ملكها الآن ولابنها وحيدها؛ قديمة بعض الشيء، ومجاورة لثلاث شقق أخرى في الطابق السادس من بناية سكنية ضخمة تملكها إحدى عائلات بيروت العريقة.

beirutonium high resolution photos.indd 45 9/20/2021 10:47:19 AM

أمّا محلّة البسطة أو منطقة البسطة التي تقسم إلى قسمَين حسب ما هو متعارف عليه بين أهل بيروت -البسطة الفوقا والبسطة التحتا- فهي في الواقع جزء من منطقة الباشورة داخل العاصمة اللّبنانية. تعود أصول تسميتها إلى عصر المماليك و«البسطة» تشير إلى كرسيٍّ من خشب كان يتّخذه السلطان له مقعدًا. ويقول بعض الروايات إنّ كلمة البسطة عربية بحتة وتعود جذورها إلى أسواق بغداد حيث كانت تطلق على الباعة الّذين لا يملكون محال أو حوانيت فكانوا «يَبسطون» بضاعتهم على الأرض من أجل بيعها. تمّت الإشارة للمرّة الأولى إلى البسطة عام ١٨٨٢ م في صحيفة المصباح، كما ذَكر التاريخ الكثير عن فتوّة رجال البسطة ونخوتهم العربية واندفاعهم للأمّة الإسلامية، واشتهرت كذلك بمعالمها الدينيّة وأسواقها التجارية لاسيّما المقاهي التي تجمع رجالات بيروت كافة. وما تزال البسطة حتى اليوم فخر أهالي بيروت واعتزازهم وقد أطلق عليها لقب «جبل النّار» نسبة لارتفاعها عن باطن بيروت[٦].

في الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين تقريبًا، كانت الحجّة أمّ محمد تترنّح في أوّل الحيّ حين عودتها من السّوق لحملها العديد من أكياس الخضار والمعلّبات وبعض الحاجيات المنزلية الأخرى. رآها عمر وهو أحد أبناء الجيران الودودين فهرع لمساعدتها في حمل الأغراض، وما إن وصل إليها حتّى ألقى التحية قائلًا:

– السلام عليك يا حجّة... السلام عليك يا أمّ محمّد.

٦- أنظر: الأحياء القديمة - حيّ البسطة - موقع مدينة بيروت الرسمي:
https://web.archive.org/web/20090312030106/http://www.beirut.gov.lb/www.beirut.gov.lb

beirutonium high resolution photos.indd 46 9/20/2021 10:47:19 AM

– وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا بنيّ.

– أيعقل ما فعلته يا حجّة؟ أكاد لا أصدّق الأمر ولو أنّي أراه الآن أمامي!

تسمّرت الحجّة قليلًا في مكانها وحار فكرها في ما فعلته، هي لا تذكر إقدامها على ما ذكره الشاب لها ثمّ عاتبت عمرها فالإنسان متى كبر وهنت ذاكرته. إنّها امرأة تقدِّر الآخر، تُجلّ الناس مؤمنة، لطيفة وقد كان عمر يعاملها كوالدته ويمازحها بما هو طريف ولبق ويزيد اهتمامه بها لأنّها جارة رضيّة. فراح يحادثها باشًّا لها وأردف:

– قد اشتريت السوق دفعة واحدة، لم لا تجزّئينه تجزيئًا؟ إنّ امرأة كبرت عمرًا لا تحتاج إلى لملمة أغراض الحوانيت كلّها. عليك بالتبضّع رويدًا رويدًا حتّى تخفّفي العبء عنّا. ثمّ أمال رأسه بعيدًا عن يدَيها مخافة أن تلاطفه على رقبته على الرغم من أنّه فاقها طولًا وضخامة. سُرّت الحجّة ومسحت عن محيّاها هيئة الخرف فربّتت كتفه بخفّة يد.

– أيّها الشّقيّ، وما شأنك أنت؟ أنا لم أطلب منك مساعدتي! هات أغراضي واذهب لأترابك أيّها المشاغب، جثّة ضخمة وعقل طفل.

– كالعادة تستطيعين بكلمتَين أن تخجلي الرجال، ما أعظم جبروت لسانك!

– لو لم أكن قويّة كفاية لما صمدت كما صمدت مدينتنا حبيبتنا بيروت رغم الحروب والأزمات على مرّ التاريخ.

beirutonium high resolution photos.indd 47 9/20/2021 10:47:19 AM

– لا شكّ في ذلك يا حجّة قد كنت أمازحك وأنت تعلمين أنّ الجميع يحترمك ويقدّرك. والنّاس يعلمون كم ضحيّت لبيتك ولتربية ولدك بعد رحيل سندك. أنت قدوة في حيّنا ومنطقتنا لما فيك من خصال المؤمنات ومن الصبر والتفاني والإيمان والمحبّة والتواضع.

– شكرًا يا بنيّ هذا لسان أصالتك ورقيّ نشأتك. أطال الله بعمر والدَيك فتربيتهما أصيلة فيك وفي إخوتك. والآن أخبرني ماذا تعمل هذه الأيّام؟

– يا حجّة أنت تعلمين حال البلد، قد تخطّى معدّل البطالة النصف.

– خذ قرضًا في حال لم يتوافر المال معك... فكم سعر البطالة اليوم؟

– يا حجّة، عنيت من لا عمل لهم في هذا البلد!

وفي لمح البصر ومن دون أن يلحظ الشاب، اعتلت الحجّة حافّة الرصيف وأمدّت كفّ يدها إلى رقبته:

يا ولد، أتحسبني لا أعرف ما البطالة؟ جلّ ما في الأمر أنّني لم أرضَ بإجابتك. حتى لو كانت معدّلات البطالة مرتفعة فهذا لا يعني أن تقف من دون أن تسعى أو تبحث عن عمل. ألم تسمع شيخ الجامع في خطبته وقد قال: «استعن بالله ولا تعجز، المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة».

– صدقًا أنا متلّهف لمعرفة السرّ! اللغز هذا حيّرني... بالله عليك كيف وصلتِ إلى رقبتي وأنت على هذا القصر وأنا فارع الطول؟

beirutonium high resolution photos.indd 48 9/20/2021 10:47:19 AM

ثمّ هرول هاربًا من أمامها وهو يضحك ولم تتمالك الحجّة نفسها حين رأته مبتعدًا كالطفل والأكياس تتراقص يمينًا ويسارًا على جانبَيه. وكان قد رآه شبان الحيّ فأشاروا إليه:

- بئس الرجولة! أتهرب من امرأة يا عمر؟
- ألم تسمعوا المثل الشائع: مئة كلمة جبان؟ هذه الحجّة هي أم محمّد يا شباب...

وصلَتْ إلى مدخل البناية حيث منزلها وقد كان عمر ينتظرها هناك. طلبت أن يعطيها الأغراض فهي لا تريد أن تكبّده أيضًا عناء صعود درج المبنى فالمصعد معطّل كعادته إلّا أنه أبى قائلًا لها إنّ من واجبه أن يوصلها إلى الباب. فهكذا تكون المودّة والإلفة لاسيّما بين أهل المنطقة حتى في مختلف مناطق لبنان. هذه هي سنّة الشارع برونقه الشعبيّ فالناس للناس وثقافة العيش الحلو كلّها فيه. واللبناني بطبعه صاحب نخوة وغَيرة على أهل وطنه ما دام الأمر بعيدًا عن السياسة الفاسدة التي تشلّع دومًا مساحات الوطن.

وبينما كانا يصعدان الدرج بخطوات ثابتة هادئة تماشيًا مع صحّة الحجّة، قالت هذه الأخيرة لعمر:

- يا بنيّ كبرت وما زلت تعين والدك في محلّه. وحتّى لو كان حانوتكم بابًا للرزق الوفير عليك أن تحصل على صنعتك الخاصة. إبحث عن موهبتك الدفينة في كلّ أمر تعرف تميّزك فيه. فالله برحمته وعزّته ما بخل على خلقه بموهبة تعيله وتكون سببًا في رزقه ووجوده.
- لا موهبة لي يا حجّة...

beirutonium high resolution photos.indd 49 9/20/2021 10:47:20 AM

- وكيف ذلك؟ ألا تعلم قوّتك يا عمر؟ أنت ماردٌ والقوّة فيك نعمةٌ إلهية. أفكرت في أن تستفيد منها في رياضة تعتمد على القوّة؟ أفكرت في الدخول إلى المؤسّسة العسكرية وربما إلى فوج القوة الضاربة؟

- يا حجّة أنت تعلمين حال البلد! وظائف الدولة تحتاج للوساطة، ويجب أن نتّبع حزبًا ما أو شخصية سياسية حتى نؤمّن وظيفة رسمية.

- بنيّ، اتكل على الله وتقدّم للوظيفة واسْعَ بنيّة صافية صالحة واترك شأن الرزق للخالق. أولم تقرأ ما جاء في القرآن الكريم: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ،[٧] صدق الله العظيم؟ اقتدِ دائمًا بالطائر فالله، عزّ وجلّ، قد خصّه بجناحين بعد أن خلقه كما أوجد له رزقه، لكن يبقى على الطائر أن يطير لينال ما قسّمه، سبحانه وتعالى، له من رزق.

- قلتِ فصدقتِ. والله إنّك لمدرسة وثقافة دينية ودنيويّة. أشكرك من كلّ قلبي على نصائحك وإرشادتك الكريمة. أطال الله بعمرك وحفِظَ لكِ ولدَكِ من كُلِّ مكروه وقدّر لك أن تفرحي له بزوجةٍ صالحةٍ تسرّ خاطرك.

أطالا الحديث فصارت الساعة السادسة إلّا عشر دقائق فشكرت الحجّة نخوة عمر وتمنّت له التوفيق حتّى يرزقه الله بعمل يسرّه واستأذنته لأداء صلاتها. طلب منها أن تأتي على ذكر اسمه لعلّه ينال البركة وقد اعتادت أن تذكر الوطن وشبّان المنطقة وشابّاتها متى طلبت

٧- القرآن الكريم، سورة هود، الآية السادسة.

beirutonium high resolution photos.indd 50 9/20/2021 10:47:20 AM

إلى ابنها في صلاتها. شكرها عمر وتمنّى لها أمسية جميلة ثمّ أملت أن تراه في الحيّ مجدّدًا.

أقفلت باب شقّتها، نقلت الأغراض للمطبخ وبينما كانت ترتّب المشتريات في الخزائن وتوضّبها رنّ الهاتف. تركت كلّ شيء واتجّهت إلى غرفة الجلوس، وفي الاتّصال هذا سمعت الحجّة صوت شقيقتها وداد تطمئن إليها، هي المهاجرة إلى أستراليا منذ زمن بعيد:

- أختي.. قد اشتقت لك! كيف حالك يا حجّة؟
- وداد... تأخّرت هذه المرّة.
- قد انشغلت كثيرًا هذا الأسبوع! لا تنسي فارق التوقيت بين أستراليا ولبنان يا أم محمّد فقلّما أرغب في أن أقلقك أو أزعجك.
- أتنزعج الأخت من أختها؟ حدثيني متى شئتِ!
- إذًا أخبريني، هل اتّخذت قرارك أم بعد؟ ألن تحضري مع محمّد إلى أستراليا؟
- أأُهاجر بعد هذا العمر؟ لم يبقَ لي من الوقت أكثر مما مضى.
- هاجري لأجل ولدك محمّد فالمستقبل ما يزال أمامه. ألا يكفينا ما يعانيه أبناء هذه الأرض؟ أحلامهم ممزّقة وكلّ وجه من وجوههم يزداد امتقاعًا يومًا تلو الآخر. الأرض في مزاد وقد كثر بائعوها واشتدّ عنفُ شاريها.
- ابني موظّف دولة... وهذا المنزل منزله تركه لنا المرحوم وبعض محالّ تدرّ علينا جزءًا من الإيجارات الشهرية. نحن مكتفون ماديًا فلم الهجرة؟
- ما قصدت الكفاية الماديّة بل الاستقرار والأمن والأمان يا عزيزتي.

beirutonium high resolution photos.indd 51 9/20/2021 10:47:20 AM

- لبنان هُويّتنا، وطننا، عزّتنا وأصالتنا. بيروت تاريخنا فكيف نتخلّى عن كلّ هذا؟ وعمّ سنبحث بعيدًا؟ إنّنا اعتدنا أن نمشي على ذاكرتنا ولنا في كلّ خطوة ذكرى دم وموت وحياة.
- أتفهّمك... وأسعد حقًّا لكلامك! لكنّنا هنا في سلام وأمان أما في لبنان فالبلد فيه ما زاد من الخضّات الأمنية وقد حان لك أن تهنئي بعيش كريم.
- لا راحة لي بعيدًا عن منزلي وجامع البسطة والأهل والأحبّة والأقارب. قد يرتاح البال أو يرتاح الجسد هناك في أستراليا، لكن القلب سيتعب يا عزيزتي... سيتعب. وفي تعبه شقاء العقل ونأْيٌ عن حقيقة وجودنا. قد لا تشعرين بما أشعره فأنتِ مهاجرة منذ زمن وتعملين وتربّين أولادك جميعا في تلك الأرض. ليتك شاهدت ما حصل معي اليوم في الحيّ مع عمر ابن جيراننا. نخوته ومساعدته كانتا كفيلتين أن تشعراني بأنّ الدنيا ما تزال بألف خير. قد رفضت آنفًا وسأكرّر الإجابة في كلّ مرّة، إنسي موضوع الهجرة فلا قيمة لحياتنا خارج حدود الوطن.
- أيّ حدود؟ لبنان تراب استباحه العالم أجمع، حدوده مشرّعة للتجاذبات الإقليميّة والدوليّة. أقولها وأكرّرها لك: الحياة في لبنان مقلقة! رجاءً، فكّري جيّدًا!
- اختار الله لنا الجنسيّة اللبنانيّة، رغباتنا وإرادتنا لا تنفع أمام مشيئة الخالق وإرادته. وُلِدنا في لبنان وتلك كانت مشيئة الله على الرغم من كلّ الحروب والصعوبات التي عانيناها ولن يطيب لنا العيش خارج هذه الأرض. الوطنُ أمانة في أعناقنا، فمن سيصون الأمانة في حال رحلنا جميعًا؟ الحياة لا تكتمل عند أحد ونحن راضون بما قسّمه الله لنا وقد أسعدني سماع صوتك اليوم.

beirutonium high resolution photos.indd 52 9/20/2021 10:47:20 AM

- آسفة إن أزعجتك بكلامي حرصًا عليكِ وعلى محمّد.
- لا داعي للاعتذار يا وداد! إسمعي قد آن موعد صلاة المغرب وعليّ أن أرفع دعواتي إلى اللّه الرحيم.
- مع السلامة يا غالية... تقبّل الله منك ومنّا صالح الأعمال فلتكن صلاتك مقبولة ولا تنسي أن تذكريني وعائلتي يا حجّة.
- أنتم جميعًا في قلبي وعقلي... عسى أن ألقاك قريبا يا أختي فقد اشتقت لك.

أنهت الحجّة اتصالها والحنين إلى لقاء أختها يهيّج مشاعرها فكم من عائلة تشلّع أفرادها بين الوطن وبين الغربة... وصحيح أنّ الإنسان يعيش في وطن ويعيش الوطن فيه حيث موطئ قدميه لكنّ لبنان كان وما يزال حالة استثنائيّة فجذوره لا تضرب عميقًا إلّا في هذا الثّرى. ثمّ اتجهت لأداء فريضة الصلاة وقبل وضوئها وصلتها رسالة نصية، فتحتها لتقرأ ما أرسله ابنها محمّد: « كيف حالك يا حجّة؟ قد آن موعد صلاتك، لم أتصل بك تفاديًا لإزعاجك فعسى أن تقرأي هذه الرسالة قبل تأدية الفريضة لعلّك تذكرينني بصلاتك لتضيفي لها اليوم دعوة بالتوفيق لأمر هامّ أخبرك عنه فيما بعد. سأنقل لك أخبارًا سعيدة قريبًا. تقبّل الله صلاتك يا حجّة. أحبّك... وأنا هاهنا جامحٌ فوق الوحش الأزرق حيث أرنو إلى الغروب».

إنّها السادسة مساءً، تناولت الحجّة خُمرتها[٨] من الخزانة بعد أن أنهت وضوءها، وبدأت صلاتها مستقبلةً القبلة بكامل بدنها دونما التفات أو انحراف عنها، وفي قلبها نيّة صلاة آية الكرسي[٩] . كبّرت تكبير الأحرام بقولها: الله أكبر ثمّ استفتحت صلاتها قائلة:

٨- الخُمرة: بضم الخاء، هي السجادة التي يسجد عليها المصلّي.
٩- آية الكرسي: هي الآية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة في القرآن الكريم، لها أهمية كبيرة عند المسلمين، ولها فضل كبير.

beirutonium high resolution photos.indd 53 9/20/2021 10:47:20 AM

أللّهُمّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. أللّهُمّ نقّني من خطاياي كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدّنس. أللّهُمّ اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد. سبحانك أللّهُمّ وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك.

وتابعت ركعتها وهي تتعوّذ من الشيطان الرّجيم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ومن ثمّ بسملت وقرأت سورة الفاتحة[١٠]: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمين. وبعد أن انتهت من قراءة الفاتحة باشرت بقراءة آية الكرسي: اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. ثمّ ركعت الركعة الأولى مسبّحةً ثلاث مرّات:

«سبحان ربي العظيم، سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي». بعدها رفعت رأسها قائلة: «سمع الله لمَن حمده. ربنا ولك الحمد، ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد»، وتلت ركعتها الأولى أوّل سجدة قائلة: «الله أكبر». مكرّرة ثلاث مرّات قولها: «سبحان ربّي الأعلى، سبحانك أللّهُمّ ربّنا وبحمدك، اللهم اغفر لي».

رفعت رأسها مكبّرة «الله أكبر». وما بين السجدة الأولى والثانية قالت: «ربّي اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني وعافني».

١٠- أعظم سور القرآن وتلقّب بأم الكتاب، ذلك لأنها افتتاحية المصحف الكريم وبها يفتتح المسلم صلاته.

beirutonium high resolution photos.indd 54 9/20/2021 10:47:21 AM

وسجدت السجدة الثانية مكبّرة «الله أكبر»، وتلتها بثلاث مرّات: «سبحان ربي الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أللّهُمّ أغفر لي»، بعدها رفعت رأسها مكبّرة «الله أكبر».

صلّت الركعة الثانية كما صلّت الأولى ثمّ جلست عند الانتهاء وقرأت التشهّد[١١] والصلاة الإبراهيمية:

«التحيّات لله والصّلوات والطيبات، السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وبارك على محمّد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد». بعدها سلّمت عن يمينها ويسارها: «السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله». وقبل أن تختم صلاتها صلّت الركعة الثالثة كما صلّت الأولى من دون قراءة آية الكرسي مكتفية بقراءة الفاتحة، وتلتها بالتشّهد والصلاة الإبراهيمية ومن بعدها التسليم يمينًا ويسارًا.

أنهت الحجّة أمّ محمد صلاة المغرب وقبل أن تقف عن خُمرتها وفي أثناء ركوعها رفعت يدَيها إلى السماء ورأسها وتنهّدت من صميم فؤادها نهدة أمّ لا تتمنّى لنفسها بل لولدها وحيدها حياةً سعيدة وصحّة ورزقًا بزوجة صالحة. هي متشوّقة لتفرح به وترى أولاده قبل أن تفارق هذا العالم الفاني إلى جوار ربّها. وما أن انتهت وهي تأمل الرحمة من لدن السماء وترجو العفو والرضى، وقبل أن ترفع جسدها النحيل عن الأرض لحظت الساعة المثبتة في حائط الغرفة فوجدتها السادسة والدقيقة الثامنة. ٦:٠٨ م.

١١- التشهد: من الأركان التي لا تصح الصلاة في الإسلام إلّا به

beirutonium high resolution photos.indd 55 9/20/2021 10:47:21 AM

في تلك اللحظة بالذّات، وفي لمح البصر حدث ما لم تكن تتوقّعه، سمعت صوتًا مُرعدًا فاهتزّت الأرض من تحتها وغابت عن وعيها صارخة «يا الله»، وكان آخر مشهد حفظته في ذاكرتها تلك الساعة المعلّقة المشيرة إلى وقت الكارثة. توقّف الزمن للحظات. مضت دقيقة أو اثنتان حتى فتحت الحجّة عينيها، فما كان المشهد الّذي رأت فيه منزلها كما عهدته قبلًا. لم تدرك ما حصل، فتحت عينيها مستغربة متعجّبة وحائرة: أين أنا؟ رحمتك يا الله ما الّذي حلّ بي وبمنزلي؟ أهو زلزال؟ ربّنا ألطف بخلقك يا جبّار يا عظيم». وكأنّها انغمست في كابوس. راحت تجول بعينين تتغامزان على الحطام في المكان حينها أيقنت أنّ شيئًا ما أصاب بيروت لكنّها لم تعلم بعد إن كان زلزالًا أو انفجارًا قريبًا من مكان سكنها. لم تكن قادرة على الحراك، حاولت إمالة قدميها لكن عبثا ثمّ يديها ففشلت أيضًا.. أدركت أن ثمّة كنبة وطاولة وبعض أغراض ثقيلة تعلو جسدها. استجمعت قواها وبدأت بتحريك ما استطاعت وهي ما تزال تأمل أنّها في لجّة الكابوس وستخرج منه قريبًا.

مضت ثلاث إلى أربع دقائق ولم تفهم الحجّة بعد ما جرى وهي القابعة تحت أثاث منزلها والعاجزة عن الحركة. فجأة انبرَتْ أيادٍ سمر قويّة وبدأت برفع الأحمال عن جسدها فعادت لتشعر بحركة في أطرافها. تأمّلت فوقها فإذا هما أبو عمر وابنه البكر، وقد عرفا أنّها ما تزال وحدها في المنزل وأنّ ابنها يناوب في المرفأ مساءً.

beirutonium high resolution photos.indd 56 9/20/2021 10:47:21 AM

٦:٠٨ مساءً

«انفجار المرفأ»

إنّه يوم الثلاثاء في الرابع من شهر آب من سنة ٢٠٢٠، وقبل ربع ساعة تقريبًا من الانفجار النوويّ المدوّي الّذي أصاب العاصمة اللّبنانيّة كان قد ورد اتصال لفوجِ إطفاء بيروت يطلُبُ مِنهم الحُضورَ لإخمادِ حريقٍ شبّ في المرفأ داخل العنبر رقم ٩ وأنّ نيرانه ممتدّة إلى العنبر رقم ١٢ من دون ذكر أيّ تفاصيل أخرى. على الفور، اتّجهت إلى المكان مجموعة من عشرة أشخاص بينهم شابة شجاعة اسمها سحر تعمل مسعفة في الفوج. وصلت الفرقة إلى المكان المقصود فتفاجؤوا بأنّ هذا العنبر مقفل بالسلاسل كما أنّهم لم يجدوا أيّ أثر لمفاتيحه ولا مَن بإمكانه إدخالهم إليه. حاولوا قطع السلاسل ليتمكّنوا من الدخول لكنّهم لم يوفّقوا في الوصول.

beirutonium high resolution photos.indd 57 9/20/2021 10:47:21 AM

في تلك اللّحظات كانت النيران تستعرّ وتتوهّج من الداخل وبدأت تُسمع أصوات مفرقعات وانفجارات صغيرة لم تحدّد طبيعتها فحصل الانفجار الأول الّذي نتجت عنه سحابة دخّان سوداء، تلته أصوات هديرٍ عالٍ يشبه صوت طائرات حربيّة - وهو الأمر الّذي لم تؤكّده أيّ جهّة رسمية إثر وقوع الحادثة- إلّا أنّ الموجودين في المرفأ شعروا بخطر كبير بينما كان بعضُهم يُصوِّر بهاتِفه الحدَث لاسيّما المسعفة البطلة التي وثّقت المشاهد في اتّصال مباشر مع خطيبها قبل أن يدوّي الانفجار الكبير ويودي بحياتها وحياة زملائها إلى جانب كثرٍ ممّن كانوا في المرفأ وقربه وقد سقط إثر ذلك العديد من الجرحى والضحايا في المناطق المجاورة له[١٢].

قبل الانفجار بدقائق قليلة، وعندما أحسّ أبطال فرقة الإطفاء بالخطر الكبير وبعجزهم عن احتواء ألسنة النيران وحاجتهم لمعدّات كبرى وربّما لتعزيزات بالعدّة والعديد، اتّصلوا بالمركز الرئيسيّ وطلبوا الدّعم الفوريّ. وكان الاتّصال بقيادة الفوج سببًا رئيسًا في إنقاذ حيوات رفاقهم وزملائهم النائمين في غرفهم التي دُمّرت لاحقًا بشكل كامل وهم الذي خرجوا بعيْدَ طلب الدعم إلى الباحة ليركبوا سياراتهم للانطلاق نحو المرفأ. دوّى انفجار نيترات الأمونيوم[١٣] فأدّى وفق بيانات رسميّة إلى تدمير نصف بيروت وقتل أكثر من مئتَين من الأرواح البريئة وفقدان أكثر من مئة من مختلف الجنسيات، كذلك تخطّى عدد الجرحى الستّة

١٢- أنظر ويكيبيديا: انفجار مرفأ بيروت ٢٠٢٠
https://:ar.wikipedia.org/wiki

١٣- نترات الأمونيوم: هو مُركّب كيميائي له الصيغة NH4NO3، ويوجد في الشروط القياسية على شكل بلورات عديمة اللون سهلة الانحلال في الماء وهي تتسيّل بسهولة لدى تماسها مع الهواء. يستخدم المركب بشكل أساسي في صناعة المتفجرات المستخدمة في المناجم والإنشاءات الهندسية.

beirutonium high resolution photos.indd 58 9/20/2021 10:47:21 AM

آلاف وثلاثمئة ألف من النازحين إضافة إلى خسائر ماديّة كبيرة فاقت الخمسة عشر مليارًا.

إنّها الساعة السادسة والدقيقة الثامنة، دوّى الانفجار الثاني الكبير وتلاه عصفٌ قلبَ بيروت رأسًا على عَقب. موجة مخيفة شلّعت الأمكنة وكأنّها زلزال مدمّر شقّ الأرض وما فيها ليتّسع تردّده إلى أطراف المدينة وضواحيها. تهشّمت الواجهات الزجاجية على أنواعها وتهبّطت الجدران وتبعثر أثاثُ المنازل. انفجار لا يمكن وصفه في كلمات مهما تعدّدت. زلزالٌ لم يُضرَب لبنان بمثله في كافّة الحروب التي واجهها عبر التاريخ ولا في أثناء الأحداث اللبنانية الدامية. إنّ الله قد قدّر وتلطّف بالمدينة وسكّانها لأنّ نصف قوّة الانفجار قد ذهب في البحر ولولا ذلك لكانت الخسائر أشدّ هولًا

ثوانٍ أو دقائق تلت الانفجار لم يعرف اللّبنانيون ما أصابهم، حتى من كانوا يصوّرون الحدث لم يفهموا في بادئ الأمر ما جرى لهم أو ماهيّة الانفجار الّذي وقع. معالم الدّمار في كلّ مكان والجرحى والضحايا هم بين الطرقات والمنازل. المستشفيات القريبة من المرفأ دمّرت تدميرًا كاملًا وأصبحت خارج نطاق الخدمة حتى اضطرت الكوادر

beirutonium high resolution photos.indd 59 9/20/2021 10:47:22 AM

الطبيّة لمعالجة المصابين في الشارع وفوق الأرصفة. هرَعَ الإعلام إلى محيط المكان، فكانت المشاهد دامية، موجعة ومخيفة. لا يمكن وصف مشاعر الحزن والغضب. الدماء تصبغ الوجوه، الشوارع مدمّاة، الأشجار مقتلعة، الزجاج متناثر في كلّ مكان، السيّارات محترقة والمارة مُلقون على جوانب الطرقات. تصريحات في كلّ مكان ومن أيّ كان. كلّهم لا يفهمون ما حدث. يسألهم الإعلاميون عما حصل معهم لتأتي الإجابات مبهمة عن الحقيقة... النّاس لا يعرفون ما الّذي أصابهم حقًّا. الأمر الوحيد الحتميّ كانت جراحاتهم النازفة والدمار المتشظّي والأشلاء هنا وهناك... يا لهذه المأساة التي غيّرت معالم البشر والحجر في ثوانٍ!

بدأ المواطنون يستجمعون قواهم، يساعدون بعضهم بعضًا، ينقلون الجرحى إلى المستشفيات، يضمّدون الجراح، يعيلون كبار السنّ، يهدئون روع الأطفال ويواسون الجرحى وذوي الضحايا. لقد كان مشهدًا مأساويًّا يفوق الوصف، رفع من مرتبة اللّبناني على الصعيد الإنسانيّ... فرغم سواد المأساة وقتامة الفاجعة وهول نتائجها على العاصمة وأهلها، برز هذا التعاضد بين المواطنين ليبرق أملًا داخل أتون العتمة الّذي خلّفه الانفجار الآثم. وربما كانت تلك الصورة الراقية التي عكسها اللّبنانيون، بعضهم تُجاه بعض، أمام العالم دليلًا واضحًا على توقهم إلى الحياة وإرادتهم التي لا تُهزم وإصرارهم وتصميمهم على النهوض من جديد وبناء مستقبلٍ أفضل للبنانَ عامةً وبيروت خاصةً.

مضت أربع دقائق تقريبًا على الانفجار فبدأت الصورة العامّة تتوضّح. خرجت المصادر الرسمية لتشير إلى وجود مادة نيترات الأمونيوم داخل المرفأ مرجّحين حدوث حريق سبق الانفجار المدّمر، وكذلك بدأت وسائل التواصل الإجتماعي بتبادل مقاطع مصوّرة حصلت عليها من مصادر مختلفة وأعادت عرضها وسائل الإعلام. فهم اللّبنانيون قليلًا ما

beirutonium high resolution photos.indd 60 9/20/2021 10:47:22 AM

حدث وشكّلوا فكرة ضبابية تنازعتها تصريحات واحتجاجات ونظريات مؤامرة. رأوا هول الانفجار الّذي وصلت ارتداداته إلى مناطق لبنانية مختلفة كما وصلت إلى البلدان المجاورة كقبرص وسوريا والأردن حسب ما أوردته وسائل إعلامية ومراكز دراسات جيولوجية فيما بعد تتمركز في تلك البلدان.

حاول المواطنون البحث عن أحبّائهم العاملين في المرفأ أو في المناطق المجاورة داخل العاصمة. ومن بينهم مريم وهي ممرضة في مستشفى الأشرفية وقد شرعت تبحث عن والدها رجل الإطفاء. كذلك هرعت الحجّة أمّ محمّد إلى المرفأ تاركةً منزلها مخرّبا بالكامل في منطقة البسطة وتوجّهت إلى المرفأ للبحث عن ولدها وحيدها محمّد وهو حارسٌ هناك.

beirutonium high resolution photos.indd 61 9/20/2021 10:47:22 AM

٦:١٢ مساءً

«الأشرفيّة بعد الانفجار»

إنّها الساعة السادسة والدقيقة الثانية عشرة... صرخت مريم طالبةً النجدة. ركض نحوها شابان كانا مارَّين في الشارع المقابل لا تعرفهما والدماء تغطّي ثيابهما. طلبت أن يعيناها على نقل العمّ علي إلى داخل المستشفى الّذي دُمِّر مبناه أصلًا ولم يبقَ له أيّ معالم واضحة. نقله الشابان قرب المدخل حيث تجّمع الأطباء والممرّضون محاولين إسعاف من استطاعوا من المصابين. اطمأنّت مريم إلى حاله وما أن أصبح بين أيادٍ أمينة، قبّلته على جبينه، شكرته على حمايتها فوعدته أنّها ستعود إليه فيما بعد ثمّ أسرعت إلى زملائها والمرضى داخل المستشفى.

دخلت البهوَ فرأت مشهدًا لم تألفه قبلًا.. السقف محطّم والخرابُ في كُلّ مكان. لا شيءَ في مكانه الصحيح. الكراسي مقلوبة. المكاتبُ مكسّرة والناسُ يركضُون بغير وعيٍ. وما هي إلّا لحظات حتّى تسمّرت مريم مصدومةً حين رأت باميلا تحمِلُ ثلاثة أطفالٍ رُضّع حديثي الولادة وتركض بهم خارجًا. نادتها فلم تسمعها زميلتها المفجوعة وقد كان إلى جانبها طبيب يساعدها لعلّهما ينقذان البراءة في أعينهم. ففي لبنان قدر الأطفال أن يولدوا موسومين بالخدعة اللبنانية العظمى وقدرهم الأعظم أن يرَوا النور في قبر رخاميّ مترف جميل البناء من خارجه ينخره دود الفساد من داخله.

beirutonium high resolution photos.indd 63 9/20/2021 10:47:22 AM

مضت دقائق على الانفجار أو القصف أو ما سبّب الدمار ومريم تحاول بما أوتيت أن تساعد الرجال والنساء والأطفال فتبلسم جراح المصابين منهم وتقدّم ما استطاعت من إسعافات أوّلية. فجأة، رنّ هاتفها في جيبها، أدركت بسرعة أنّ أحدًا من عائلتها يطمئن إليها، فربّما كان المتّصل والدها وقد سمع ما حلّ بالمستشفى. أخرجت هاتفها فرأت رقم المنزل وأجابت على الفور بعد أن تمالكت نفسها كيلا يصيبها القلق ثمّ سمعت والدتها تبكي وتصرخ قائلة:

- شكرًا يا يسوع! ابنتي بخير! الحمد لله! أقلقتني جدًا فالاتّصالات قد حجبت عنّا لبعض الوقت.
- أنا بخير يا أمّي قد أنقذني العم علي وهو رجل جنوبيّ شهم. حاول أن يضحّي بنفسه من أجلي إلّا أنّ القدرة الإلهيّة أبقته على قيد الحياة.

beirutonium high resolution photos.indd 64 9/20/2021 10:47:22 AM

- ما هذه الفاجعة التي حلّت بنا؟ أهكذا صار الموت يأتينا إلى بيوتنا؟ لو لم أكن في الباحة مع إخوتك لكنّا فارقنا الحياة، فمنزلنا تحطّم أثاثه وتفسّخت جدرانه وكذلك منازل الجيران والمنطقة كلّها.
- أوصل الدمار والخراب إلى حيّنا؟!
- قد دُمّر نصف بيروت وحسب الأخبار الواردة يبدو أنّ الانفجار في محيط المرفأ. نحن لا نعلم شيئًا حتى اللحظة وأنا قلقة على والدك! أحاول الاتّصال به لكنّ هاتفه محجوب ولا أحد من زملائه يجيبني.
- تحدّثت مع والدي منذ نصف ساعة تقريبًا وقد كان في مركز الإطفاء مع رفاقه وأعلمني بأنّه سيكون في المنزل قبل الساعة السابعة، فلا شكّ أنّ إرسال هاتفه أصابه عطل في الشبكة كما حصل معي.
- هو بعث إليّ رسالة نصية يعلمني فيها أنّه متوجّه مع زملائه في مهمّة إلى المرفأ لإطفاء حريق كان قد شبّ وهم لا يعرفون طبيعته أو أسبابه على الرغم من أنّ دوامه قد انتهى.
- أمتأكدة أنتِ يا أمي ممّا تقولينه؟أهو حقًّا في المرفأ؟ سأذهب حالًا للبحث عنه.
- لا أرجوك لا أريد أن أقلق عليك أنتِ أيضًا، حمدت الربّ أنك بخير واطمأننت إليك فقد نذرت خلاصك للعذراء والقدّيسين.

beirutonium high resolution photos.indd 65 9/20/2021 10:47:23 AM

– أعتقد أنّ الخطر قد زال الآن، يجب أن أبحث عن والدي وسأحاول الاتّصال بك ان استطعت فإن عرفت عنه شيئا أخبريني حالًا.

هرعت مريم تاركةً باحة المُستشفى وبينما هي ذاهبةٌ توقّفت قُربَ عليّ فأخبرته بما جرى مع والدها. رجاها أن تنتبه فالخطر محدق في كلّ مكان. أخذت رقم هاتِفه ووعدته أنّها ستعاود الاتّصال به ما إن تعرف شيئًا عن والدها. وقبل أن تهمّ بالرحيل شكرته مرارًا لإنقاذه حياتها ثمّ اتّجهت صوب المرفأ.

كانت تسير في شوارع الأشرفية متنقلّة بين الحطام تنظر تارة إلى الشقق المهدّمة وطورًا إلى المحالّ والسيارات المحترقة متسائلة عن سبب الكارثة، باكية حالها وحال النّاس أيضًا. الحزن يلفّ الأجواء والصراخ يشقّ نسماتِ الهواء والدّمار في كافّة الأرجاء... تركضُ ونُصب عينيها بوابة المرفأ لكنّ الطريق طال بعض الشيء وقد كانت تراقب وتحفظ صورًا لن تمحوها الأيام ولن يتمكّن منها النسيان. إنّها مأساةٌ لم تشهد مريمُ مثلها قطّ، فهذا رجلٌ كهلٌ ملقى على قارعةِ الطريق وشابٌ يحمِلُ والدته يرجوها أن تفتح عينيها وفتاةٌ تضَمِّد جراح إخوتها ونساء ورجال يجتمعون مع أحبائهم متحسّرين على خساراتهم التي لم يعوا حتى اللحظة حجمها.

وفي أثناء ذلك انتبهت لعاملةٍ أجنبية ممدّدة في الشّارع مضرّجة بدمائها ومذعورة غير قادرة على الكلام. تبكي وترتجف وتلطم رأسها بيدَيها فاقتربَت منها ثمّ أمسكَت يدَيها باهتمام لتتأكّد أنّها بخير ولم تصب بأذًى. فلا شكّ أنّها تعاني فورةً عصبية جرّاء الكارثة، برويةٍ مسحت وجهها بطرف ثوبها:

beirutonium high resolution photos.indd 66 9/20/2021 10:47:23 AM

– لا تبكِي يا أختي، لا تبكِي... لا تخافي أنا معك... ما اسمك؟

– ميشا.

– أأنت بخير يا ميشا؟

– سيّدتي في مشكلة...

عرفت مريم أنّ الشابة السمراء تعملُ لدى سيدةٍ ربّما أصيبت أو حلّ بها مكروه جرّاء الانفجار، ولا شكّ أن المنزله متضرّر فالغبار والدّم امتزجا فوق ثياب الفتاة ووجهها وشعرها. فحاولت أن تساعدها في إيجاد سيّدتها.

– أخبريني أين تعملين؟ وأين سيّدتك؟

– فوق... في الطابق الثاني...

أشارت العاملة للمبنى الذي خلفها وتحديدًا إلى الشقّة حيث سيّدتها. أخذت مريم بيدِ الشابة وترافقتا على الأدراج من أجل مساعدة سيّدة لا تعرفها متناسية لوهلة أمر والدها. فالمحبّة التي تملأ قلبها وشغفها بمساعدة الآخرين والإنسانية التي تطغى على طبعها وتفكيرها جميعها دوافع نحو عمل الخير.

ما إن وصلتا إلى الطابق الثاني، بعد أن اجتازتا الأدراج المعتمة جرّاء انقطاع التيار متنقلتين بصعوبة بين الركام، أشارت العاملة إلى الشقّة الرابعة من اليمين وقد كان بابُها مخلوعًا في غير مكانه. دخلت مريم منزلًا أشبه بباحة الخردة فصرخت العاملة وأشارت إلى الممرّ بين الغرف لتجد سيّدة عجوزًا لا تتحرّك وفوقها خزانة كبيرة وزجاج متناثر. لم تستطع العاملة مساعدة سيّدتها فهي غير قادرة على رفع الأثقال

beirutonium high resolution photos.indd 67 9/20/2021 10:47:23 AM

وحدها ولم تجد من قبل أحدًا إلى جانبها فحجم الكارثة أفقد النّاس صوابهم وجعلهم يتراكضون كالمجانين.

اقتربت مريم من الخزانة محاولة والخادمة رفع الخانة معًا حتّى تتمكّنا من إخراج المرأة. وبينما كانت تمسك بالخزانة محاولة تفادي الزجاج المتناثر على الأرض سمعت مريم أنين العجوز فراحت تُحادثها كيلا تفقد وعيها:

– نشكُر الربّ أنّك على قيد الحياة. لا تقلقي سنخرجك سيدتي...

أنَّتْ تحت الركام وكانت غير قادرة على الحراك. حاولت مريم مع ميشا إزاحة الخزانة إلّا أنها كانت ثقيلة جدًّا. عملتا على إزاحة بعض الأغراض من فوقها طالبتين من ربّة المنزل أن تحاول جرّ نفسها بعض الشيء. وضعت الشابتان كامل قوتيهما فرفعتا الخشب والأغراض عن العجوز التي زحفت بدورها بشقّ النفس حتى استطاعت الخروج. قدّمت مريم لها الإسعافات الأوّلية وتحقّقت من سلامة جسدها. طلبت من ميشا أن تحضر لها بعض الماء فغسلت وجه السيّدة وروتها بقطرات قليلة؛ جلستا قربها لثوانٍ تطمئنان إليها، فقالت العجوز لمريم:

– مَن أنتِ يا ابنتي؟

– مريم.

– قد كُنتُ أصلّي للعذراء حتّى تنقذني فأرسلتك إليّ. شكرًا يا ابنتي...

– لا تشكريني أنا بل اشكري هذه الشابة الجميلة - مشيرة إلى ميشا - التي قادتني إليك وقد كانت خائفة عليك كما لو أنّك أمّها.

beirutonium high resolution photos.indd 68 9/20/2021 10:47:23 AM

– هي فعلًا بمثابة ابنتي ولا أحد لي في هذه الدنيا سواها... أولادي هاجروا منذ زمن وتركوني بعهدة ميشا الجميلة.

– ولماذا بقيت وحدك هنا؟

– ولدت في هذا البلد، وعشت طوال حياتي في الأشرفية لأكثر من سبعين عامًا، وأمضيت حياتي الزوجية في هذا البيت، كيف لي أن أتركه وأرحل؟ هنا وطننا وهذه أرضنا ولن نرحل عنها مهما فعلوا بنا. صامدين كنّا وسنبقى ولن يأخذوا منّا وطننا أبدًا.

– باركك الربّ... الحمد لله على سلامتك. والآن أعذريني أريد أن أذهب إلى المرفأ بحثًا عن والدي.

– أتذهبين وحدك؟ هذا خطر عليك! إنّك حقًّا شابة مميزة أتيت لمساعدتي وأنت لا تعرفين مصير والدك... ما أجمل روحك وما أعظم إيمانك يا مريم! أتمنى أن تصونك وتحميك العذراء ما بقيتِ... قبل أن تذهبي مدّي يدك قليلًا.

ومدّت مريم يدها مستغربة نحو العجوز فسحبت الأخيرة من يدها مسبحة موشّاة بصور القدّيسين إضافةً إلى رسم مريم العذراء كانت قد لفّتها على معصمها ثمّ ألبستها إيّاها في يدها.

– هذه هديّتي لك. ومهما جرى فلا يمكنني شكرك على ما فعلته تُجاهي. باركك الربّ!

– هذا واجبي لا أكثر... اليوم أهداني الله فرصةً ثانية رغم هول المأساة. صلّي حتّى يكون والدي بخير على أمل أن أجده معافًى.

beirutonium high resolution photos.indd 69 9/20/2021 10:47:23 AM

– إذهبي فعين الربّ سترعاك وليكن المسيح معك وإلى جانبك دائمًا ويحقّق مرادك في كلّ حين. أرجو أن تجدي ضالتك يا ابنتي. إذهبي فقلبي معك.

خرجت مريم من المنزل راكضة لافّة المسبحة على معصمها وهي تفكّر في والدها غير عالمة إن كانت ستجده أم لا متسائلةً عن حجم الكارثة التي أصابت المرفأ لأنّ الانفجار قد أصاب الأشرفية بهذا الكمّ كلّه من الخراب. حاولت أن تبعد الأفكار المرّة وأخذت تتذكّر مكالمته وحديثه الأخير معها، كلّ شيء في عقلها يشعرها بأنّها لن ترى والدها إلّا أنها كانت تركُن للصلاة والرجاء مع كلّ خطوة تخطوها نحو المرفأ، طالبةً من العذراء ويسوع أن يحمياه ويردّاه إلى عائلته بخير.

الطريق نحو موقع الانفجار شاقّ وكأنّ الزمن توقّف، الكوارث والأهوال التي تلاحظها غريبة. حاولت قدر المستطاع وهي في طريقها تقديم المساعدة لمن صادفته، وكانت تجد الناس يساعدون بعضهم بعضًا من دون سابق معرفة. وهذا خيرٌ وضَوءٌ خافت ينير نفق الظلام الّذي دخلوه في هذه الأوقات. وعلى الرغم من المأساة وهول الفاجعة كانت الإنسانية ظاهرة واضحة المعالم بين المواطنين.

إنّها الساعة السادسة والدقيقة العشرون، اقتربت مريم من المرفأ الّذي ما إن أطلّت صوبه حتى رأته ساحة ترابية مدمّرة تبعثر فيه ومِن حوله كلّ شيء وكأنّ قنبلة نووية أصابته. الأهوال في كُلّ مكان، الجرحى أيضًا، الطرقات ما عادت كسابق عهدها وقد تحولّ لون السماء أحمر واغبرّت الأرض. نظرت فوجدت الجيش اللُّبناني يضربُ طوقًا على طول المسافة المحيطة بموقع الانفجار، كما وجدت امرأة محجّبة تحاجج الضابط المسؤول وتشير إلى داخل المرفأ وهي تصرخ مولولة «ابني محمّد».... فكان جليًّا أنّ الجيش لن يسمح لأحد بالدخول إلى موقع

beirutonium high resolution photos.indd 70 9/20/2021 10:47:24 AM

الانفجار؛ عندها قرّرت الذهاب لمحادثة الضابط ومساعدة الحجّة فربّما ستستطيع إقناعه بالسّماح لهما بالدخول وعلى مسؤوليتهما لأنّها أيضًا تريد كشف مصير والدها.

beirutonium high resolution photos.indd 71 9/20/2021 10:47:24 AM

٦:١٢ مساءً

«البسطة بعد الانفجار»

قد مرّت دقائق قليلة والحجّة أمّ محمّد تقبعُ تحتَ أثاثِ منزلها لا تستطيع الحراك، وإذ بأيادٍ سمر قويّة تبدأ برفع الأثقال عن جسدها، حتى بدأت تشعر بأعضاء جسدها. إنّهما جاراها الحاجّ أبو عمر وولده البكر وقد أتيا لمساعدتها. فعمر كان متأكّدًا بعد الانفجار أنّ الحجّة وحدها في شقّتها، لهذا ركض إليها مع والده بعد أن اطمأنا إلى العائلة.

beirutonium high resolution photos.indd 73 9/20/2021 10:47:24 AM

عمدَ عمر مع والده إلى رفع الأثاث والركام عن الحجّة، وكانت العناية الإلهية قد حمتها من الموت. جسدها سليم مع العلم أنها أصيبت ببعض جروح طفيفة أسالت دمها. لم تستطع الحراك لصدمتها من هول الانفجار واستغرابها ممّا حصل، وما أن التقطت أنفاسها وبدأت تعي أنّ ما حدث لها ومنزلها حقيقة وليس خيالًا، أشاحت بنظرها يمنة ويسرةً لترى الدمار الهائل الّذي أصاب منزلها، وقد صارت تسمع صفارات الإنذار وعويل النّاس في الشوارع وصوت الحاج وولده محاولين إيقاظها من الصدمة:

- تقوي يا حجّة... واستهدي بالله. أنا جارك أبو عمر ومعي ولدي أتينا لنخرجك من المنزل فالخطر لم ينحسر بعد عن المدينة.
- ما الّذي حصل؟ أنا لا أفهم شيئًا! كيف تدمّر منزلي هكذا؟ ما هذه الضجّة في الخارج؟
- لا نعلم شيئًا حتى اللحظة يا حجّة، قد سمعنا صوتًا يشبه هدير طائرات قريبًا وقويًّا، وقبله سُمِع صوت انفجار صغير تلاه انفجار ضخم لا نعلم طبيعته حتى اللحظة والمنطقة كلّها مدمّرة.
- يا إلهي انظرا إلى حالكما... الدماء تغطّي ثيابكما ووجهيكما! أأنتما بخير؟
- إنّها دماء الجيران الّذين أسعفناهم، فكثر تضرّروا جرّاء ما حصل. وأنا طلبت من والدي أن يرافقني فنخرجك من المبنى لأنني علمت أنك وحدك يا أمّ محمّد.
- شكرا يا عمر يا بنيّ.... أقدِّر كثيرًا خوفك عليّ.

beirutonium high resolution photos.indd 74 9/20/2021 10:47:24 AM

– هيا بنا يا حجّة دعينا نساعدك فنخرجك من المبنى فقد يحدث انفجار آخر أو هجوم مماثل ليكون الضرر أكبر. يجب أن نأخذك إلى مكان آمن.

خرج أبو عمر وولده وهما يصحبان الحجّة من منزلها، وفي أثناء نزولهما من الطابق السادس كانت الحجّة تشاهد بأمّ عينها المصائب والويلات التي أحدثها الانفجار في منازل جيرانها كما الخسائر الكبيرة التي مُني الجميع بها. كان الجيران جميعهم مضطربين يصرخون، منهم الجرحى ومنهم من كان يدخل البيوت لمساعدة كبار السنّ. توحّدت كافة البيوت في تلك اللّحظة كأنها بيت واحد، كذلك صارت العائلات عائلة واحدة والجميع يطمئن إلى الجميع.

وصلا إلى الشارع خارجًا فلم تصدّق الحجّة ما رأته. أخذت تسأل نفسها، ما الذي دمّر منطقة البسطة؟ أهو زلزال أو انفجار أو هجوم صاروخي؟ لقد شهِدَت حروبًا كثيرة في لبنان في حياتها لكنّها لم ترَ يوما آثارًا أو نتائج حرب كالتي رأتها في تلك اللحظات. أخذت تسأل النّاس: «ماذا حصل يا عمر؟ ماذا حصل يا جيران؟ أخبروني ماذا حدث لمنطقتنا؟» بينما كان المارة يركضون إلى جانبها، وعمر يحاول تهدئتها فقال لها:

– يا حجّة أنتِ في أمان... أرجوك لا تبارحي مكانك. سأتركك قليلًا لأطمئن إلى باقي الجيران فربما أتمكّن من مساعدة بعض المصابين.

– كان الله بعونك يا بنيّ. إذهب ولا تقلق بشأني.

وما أن رحل عمر تاركًا الحجّة مفترشة رصيفَ الشارع والخراب في كلّ مكان والغبار يعمّ الأجواء حتّى لاحظت مختار المحلّة يركض تجاهها مضرّجًا بالدماء، فما إن وصل سألته:

beirutonium high resolution photos.indd 75 9/20/2021 10:47:24 AM

– يا مختار أخبرني ماذا حصل لنا ولمنطقتنا؟ ما الّذي أصاب البسطة بهذا الخراب؟

– البسطة يا حجّة؟ قولي بيروت وربّما لبنان.

– أخبرني، ماذا حصل؟

– يقولون إنّ انفجارا مهولًا وقعَ في المرفأ ولم تعرف أسبابه بعد.

– المرفأ؟ مرفأ بيروت قربنا؟

– نعم... وحاليًا لا يمكنهم حصر الأضرار فبعضهم يقول إنّه أقرب ليكون انفجارا نوويًّا.

– يا الله... إحفظ لي ولدي... ولدي.. أريد ولدي...

– أكان في الخدمة اليوم؟

– نعم... نعم... محمد. آهٍ يا ولدي!

وقفت الحجّة متناسية أهوالها وأوجاعها وأخذت تلطم رأسها وتصرخ باسم ولدها وحيدها بصوتٍ عالٍ. حاول المختار تهدئتها لكن عبثا. طلبت منه أن يتركها لأنها عقدت العزم على الذهاب والبحث عن محمد في المرفأ، إلّا أنّه حذّرها من ذلك لأنّ المكان خطر جدًّا عليها. أبت الاستماع وأخذت تصرخ في وجهه: «ولدي... أريد ولدي».

استطاعت التنصّل من المختار، وبدأت تركض نحو المرفأ على الطريق الذي لم يعد مألوفًا فقد غيّر الانفجار كافّة المعالم. أصبح الشجر ديجوريًّا، الجدران مخرّبة، والسيارات مقلوبة وبعضها يحترق. أمّا النّاس فكانوا يركضون غير مصدّقين ما تراه أعينهم. وهي تتمنّى أن تصحو من كابوسها غير أنّ وعيها وعقلها يؤكّدان لها أنّ ما تعيشه حقيقة مرّة.

beirutonium high resolution photos.indd 76 9/20/2021 10:47:24 AM

كانت أمّ محمد تركض في شوارع بيروت راثية ولدها، مفجوعة موجوعة حالها حال كلّ الناس المتضرّرين والمفجوعين على أحبائهم أكانوا جرحى أم مفقودين أم ضحايا. وقبل وصولها إلى المرفأ بشارعين أو ثلاثة، ومن هلعها على حال ابنها تعثّرت ووقعت أرضًا فحاولت أن تستجمع قواها وتنهض لكنّها خارت... جلست تستريح مسندة وجهها على كفّيها تبكي ثمّ شعرت بدنو رجل منها قائلًا:

– اصبري يا حجّة. اصبري. قدر الله وما فعل شاء.

رفعت رأسها ونظرت إلى محدّثها لتجدّه شابًّا في مقتبل العمر فسألته مغرورقة:

– من أنت يا بنيّ؟

– اسمي حَمَد. وصلت منذ يومين من دوحة قطر إلى بيروت في زيارة لأصدقائي وكنت أهمّ بالرحيل من الفندق حين دوّى الانفجار في المرفأ.

– أمتأكد أن المرفأ انفجر يا حمد؟!

– كان هناك حريق صغير في بادئ الأمر وبعدها بدقائق وقع انفجار صغير بعدها خرجنا لنلقي نظرة ونصوّر مقاطع لنوثّق ما يجري ثمّ حصل انفجار كبير دمّر كُلّ شيء.

– يا إلهي... ولدي وحيدي محمّد في المرفأ. يا الله! يجب أن أذهب للبحث عنه.

– مهلك يا أمّ محمّد! أخشى عليك، لا تذهبي فالمكان خطر.

– أنا لا أخشى على نفسي ولا قيمة لحياتي من دون فلذة كبدي وسبب وجودي. إنّه حتمًا في المرفأ وأشعر أنّه بخير.... يجب أن أبحث عنه ولا بدّ أن أجده.

beirutonium high resolution photos.indd 77 9/20/2021 10:47:25 AM

- رغم أنّني لا أحبّذ ذهابك لكنّك تتلوّين ألمًا ولن أتركك وحيدة، سأساعدك للوصول إلى المرفأ ثمّ أعود للاطمئنان إلى قريبي المصاب قرب الفندق.
- لا عليك. أنا ذاهبة وحدي... عدْ إلى قريبك.
- أبدًا! أنتم أشقاؤنا في لبنان وأهلنا ومصلحتكم تهمّنا... بيروتكم بيروتنا. نحيا معكم آلامكم ونعاني معكم معاناتكم ونحزن لحزنكم ونفرح لفرحكم... لبيروت مكانة كبرى في قلوب إخوانكم العرب.
- أنتم أهل النخوة والشهامة والجود. شكرا لك يا حمد. أعادك الله سالما إلى ربعك ومحبّيك.
- هيا بنا يا حجّة، سأسير معك حتى تصلي المرفأ فلا شكّ أنّ الجيش صار الآن هناك. سأتركك حينما أطمئن أنك أصبحت بين أيادٍ أمينة.

أسعدها الشاب القطري صاحب النخوة وقد هرع إليها مساعدًا فتلك اندفاعة المواطن العربي الشّهم تجاه إخوانه العرب. وقد تعوّد لبنان وقفة أشقائه معه في أيام المحن. مشت معه وهي تتلفّت من جانب إلى آخر لترى مخلّفات الانفجار والدّمار. بيروت ما عادت بيروت التي عرفتها وشُبّهت يومها بعروس الشرق. بيروت لم تكن هكذا قبلًا فقد قُلبت رأسًا على عقب. لا مشاهد حياة بل شبح الموت يخيّم هاهنا وصدى الآلام والأحزان في كلّ مكان. مشت الحجّة وحمد متفاجئين مصدومين مما يريانه. إنّه لأمرٌ لا يصدق وفوق كلّ وصف حتّى الكلمات ما عادت قادرة على البوح وقد كُمّمت حروفها.

beirutonium high resolution photos.indd 78 9/20/2021 10:47:25 AM

شارفا على الوصول من جهة بوابة تغيّرت كلّ معالمها وكأنّ الحديد صُهر فيها... الساحة ترابية فاحمة وقد وصل الجيش اللّبناني ليؤمّن المكان ويضمن سلامة المواطنين ويساعد المصابين. أخذ حمد بيد الحجّة أمّ محمّد واقترب وإيّاها من الضابط المسؤول.

- السلام عليكم واحترامي لكم.
- لم أتيتما؟ ألا تريان الدّمار؟ ألم تشهدا هول المصيبة التي نحن فيها؟ المكان خطر وهذه المرأة تحتاج إلى رعاية فخُذها إلى أقرب مستشفى.
- رويدك يا نقيب. هذه المرأة صادفتها وهي على قارعة الطريق وقد أرادت البحث عن ولدها وحيدها داخل المرفأ.

لم تكن الحجّة لتقوى على الكلام فدموعها لم تعرف الضنّ غير أنّها تنهّدت وشدّت رباطة جأشها:

- بُنيّ... إذهب فتفقّد قريبك. إنّك والله قد وقفت وقفة ابن مع أمه. أشكر لك مساعدتك واهتمامك بي، ليس الأمر غريبًا عنك أو عن ربعك وبلدك وكافة إخواننا في الخليج. إذهب وسأتفاهم مع الضابط فلا شكّ أنّه يعرف معنى معاناتي فليحسبني والدته.
- حسنًا لك ما شئتِ.. من واجبي أن أكون إلى جانب قريبي وإنّي لمتأكد أنّ حضرة النقيب سيتفهّم شعورك وسيقف معك وإلى جانبك. إلى اللّقاء واعلمي أنّه منذ اليوم قد رُزقت أمًّا ثانية في بيروت.

beirutonium high resolution photos.indd 79 9/20/2021 10:47:25 AM

- حماك الله ورعاك. انتبه لنفِسك. أجدّد شكري لك يا حمد. بالتوفيق وإلى اللقاء. حبّذا لو أجد ولدي وحيدي فهو كلّ من تبقى لي في هذه الدنيا.
- بإذن الله ستجدينه معافًى ليفرح قلبك ويستكين شعورك. إلى اللقاء... يا أمّي.
- رافقتك السلامة.

صارت الساعة السادسة والدقيقة العشرون مساءً، همّ الشاب الخليجي في طريقه عائدًا إلى الفندق حيث قريبه المصاب لينقله إلى المسشتفى، تاركًا الحجّة أمّ محمّد مع الضابط المكلّف فرضَ طوقٍ أمنيّ في موقع الانفجار.

beirutonium high resolution photos.indd 80 9/20/2021 10:47:25 AM

٦:٢٠ مساءً

« بين الرّكام»

الأجواء مُثقَلة والدخان في كلّ مكان، مرفأ بيروت تحوّل إلى ساحةِ خُردة. أصوات غير مفهومة وبيئة الخراب لا توصف. تنهّدات الآهاتِ تُصدي عبر ذرّات الهواء فوق سماء العاصمة. الأمُّ منهكة، دمع عيينها ملتهبٌ شوقًا لرؤية ابنها وهي الباحثة عن رائحة جسمه بين الركام.

beirutonium high resolution photos.indd 81 9/20/2021 10:47:25 AM

مشى «لبنان» بضع خطوات ليصل إلى طرف المرفأ ممعنًا نظره في شاطئ البحر ماسحًا زواياه ومتربّصًا بتنهيدة أو تأوّه لكن عبثًا ما زاد من اضطرابه وخشيته أن تطفو جثّة محمّد فوق صفحة الماء. كانت مريم تصلّي الأبانا والسلام وتتنقّل بين حاويات المرفأ المبعثرة هنا وهناك مناديةً آملة أن تسمع صدًى يعود إليها مستغيثًا. ما هي إلّا ثوانٍ حتى صرخت للبنان فهَرَع إليها راكضًا ورأته الحجة ثمّ تبعته وقلبها ينبضُ أملًا برؤية فتاها حيًّا يُرزق. وعلى الرّغم من محاولةِ الضابط ثنيها عن اللّحاق بِه إلّا أنّها أمسكت يديه وتشبّثت بهما:

- أرجوك، لا تعذّبني يا بنيّ.. أرجوك. أريد أن أرى ولدي إنّي مشتاقة له.
- دعيني أتفقد المكان أوّلًا وأعدك بألا أتأخّر.
- لا، أنت لا تعرف شكله وقلبي ينبئني أنّه هنا في انتظاري.
- حسنًا أعطني يدك لكن عديني أن تكوني قويّة في كلّ الظروف. أنت سيّدة مؤمنة وتعرفين أننا جميعا نخضع لمشيئة الله ونسلّم راضين لأمره.
- أعانني الله على مصابي. اللّهم تشفّع بنا وارحمنا.

قبّل لبنان جبينها داعيًا أن يتلطّف الله بأمره ويقدّرها على الصبر. أبلغ مريم أنه قادم مع الحجّة إليها وما إن وصلا إليه حتى أثقلتهم الفاجعة. قد وجدوا ثلاث جثث مبتورة الأطراف ومشوهّة بين الأنقاض وكان من الصعب الكشف عن هويّة كلّ منها. أشار لبنان إلى مريم لتقترب حتّى يتسنّى له أن يتفقّد الضحايا.

beirutonium high resolution photos.indd 82 9/20/2021 10:47:25 AM

وفي حين كانت مريم تثني أم محمّد عن الاقتراب راح لبنان يفتش في جيوبهم ليتأكّد بعدها أنّ الجثتين هما لعاملين من عمال المرفأ في حين أنّ الثالثة لباسها مدني وحاول أن يبحث ليتبيّن هويّتها فتنبّه لوجود وشمٍ على الساعد وكانت علامة فارقة. عاد إلى الحجّة وأبلغها أنّ بين الثلاثة شابين عاملين في المرفأ وأنّ ولدها ليس أحدهما فهو حارس أمن ثمّ أردف سائلًا إن كانت لمحمّد علامة موشومة في جسده.

– لا! فابني كان يبغض الأوشام ويعتبرها تشويهًا للجسد وأمرًا يخالف طبيعة الخلق.

– إذًا فثالث الضحايا ليس ولدك لأنّه موشوم على ساعده... الرحمة لهم جميعًا.

beirutonium high resolution photos.indd 83 9/20/2021 10:47:26 AM

- رحمهم الله وصبّر أهلهم يا ولدي.
- هم الآن مع المسيح في ملكوته، في عالمٍ أفضل من هذا العالم.
- صدقت يا مريم! هم الآن جميعًا بين يدَي الرّحمن. أمهليني دقائق قليلة حتى أعلم قيادتي وفرق الإنقاذ بوجود الضحايا الثلاث من أجل نقل جثثهم. فمن واجبنا أن نعلم ذويهم في أقرب وقت لأنّ إكرام الميت دفنه. وبعدها سنتابع البحث عن محمّد وعسى أن نجده حيًّا يرزق.
- ما أنبل موقفك! حماك الله وأبقاك سالما في خدمة وطنك وأهلك. أنا آسفة لما تتكبّده من عذاب لأجلي.
- عذابي الوحيد هو ألّا أكون قادرًا على أن أثلِجَ قلبك وأطمئنك إلى مصير ولدك. عذابي هو ما أراه من دمار في وطني وما باستطاعتي فعل شيء. عذابي أنني ألبس بذلة تمنعني من أن أثور على ذاتي أوّلًا وعلى كلّ مَن خرّب بلدي وقتل شعبي ونشر الفتنة والرعب في كلّ شبرٍ منه. إنّ قلبي لفي ألمٍ شديد، إنني مفجوع موجوع لقسوة المشهد. لا أريد أن أنهار أمام مصابك ومصاب وطني لأنني سأكون مقصّرًا في خدمتك لكنّني حقًّا ممزّق من داخلي. أشعر أنني ميتٌ حيّ أو قولي إنّي لا أشعر سوَى بالغضب والقهر. قد وجدت ثلاث ضحايا قتلى ذنبهم أنّهم كانوا يقومون بواجبهم الوظيفي لإعالة عائلاتهم وكسب الرزق الحلال. آخ... عن أي عذاب تتحدّثين؟ قد أماتونا ولو أنّنا ما نزال أحياء.

beirutonium high resolution photos.indd 84 9/20/2021 10:47:26 AM

اقتربت أمّ محمّد منه وضمّته بقوّة إلى صدرها ولوهلة نسيت سبب حضورها وشعرت بآهات هذا الشاب الممزّق شعوره. راحت تقبّل بذلته ونجومه ورأسه داعيةً له بالخير في حين ذرفت مريم دمعًا حارقًا فمشاعرها متخبّطة وقد تغاضت أيضًا عن أسباب المأساة. فهل تبكي والدها شهيد الواجب؟ هل تبكي حال بلدها ومدينتها؟ هل تبكي الحجّة المفجوعة على ولدها؟ وهل تبكي على وطنية مسجونة في قلبٍ شابٍ أسير بذلة الواجب الوطني؟ المأساة كبيرة وهي فوق الوصف والتقدير. الحادث مفجعٌ. الآلام كثيرة. الخوف مطبق وهو خوف رحيل الإنسانية عن أرض هذا الوطن الرسالة الشرقيّة.

اقتربت مريم من الحجّة طالبةً منها الاستمرار في عملية البحث عن محمّد، فما يزال الأمل في العثور عليه حيًّا. تناول النقيب جهازه وتحدّث إلى مركز القيادة مرسلًا إليه إحداثية المكان فأعلم المسؤولين أنّه سيضع لهم إشارة فوق جثث الضحايا الثلاث طالبًا فرق إنقاذ بأسرع

beirutonium high resolution photos.indd 85 9/20/2021 10:47:26 AM

وقت ممكن... فالمنطقة بعيدة قليلًا عن موقع الانفجار الرئيسيّ ولربما سيجدون أحياء بين حاويات الشحن. ما إن أنهى مخابرة القيادة وفرق الإنقاذ حتّى عاد للبحث بين الركام فتوقّف لحظة ونظر إلى السماء ثمّ تنهّد تنهيدة أطلقتها روحه التوّاقة إلى الخير: «رحمتك يا الله! اللهم أَعنِّي على مساعدة هذه الأمّ. اللّهمّ لا اعتراض على قضائك وحكمك. اللّهم بحقّ إبداعك النور الكليّ إبعث لي بضوءٍ من لدُنك فيرشدني في هذا النفق المظلم كيما أجد ضالة هذه الأم. أرجوك ربّي في عليائك أن تعطيني إشارة ما، دلّني على ما يسعفني لأساعد أمّ محمّد. المأساة كبيرة والحزن كثير فربما نتمكّن من إضاءة شمعة أمل في هذا الظلام الدامس. أرجوك إلهي مُدَّني بالعون فإنّني أخاف أن أفشل في تقديمه بدوري. اللهُمّ أنت الحميد السميع».

وما إن ختم دعاءه ورجاءه وأخفض نظره من السماء ليتفحّص من جديد مكان الرافعة العملاقة الأولى حتى رأى قطعة حديد تتداعى من رأس الرافعة لترتطم بجسر ضخم في وسطها ثم ترتدّ بعدها إلى الوراء بجهة معاكسة. فجأةً تذكّر تعاليم فوج الهندسة في الجيش، وفهم أنّها ربما إشارة إلهية لمساعدته في توجيه تفكيره حتّى ينال مبتغاه. هدأ وأخذ يفكّر في المكان الّذي قد يكون اتّخذه محمّد له موقعًا لمراقبة الغروب بينما أمّ محمّد تنادي ولدها ومريم قربها تبعد الحطام تارةً وتقلب البضاعة المبعثرة طورًا.

– «لو كنت مكان محمّد وأردت أن أعتلي تلك الرافعة، ماذا كنت سأفعل»؟! وبينما كان لبنان يراقب من بعيد وجد سلّما كبيرا من جهة البحر يؤدّي إلى الجذع الرئيسيّ في وسط الرافعة وتلك مساحة تتّسع لوقوف شخص فوقها ليرى الغروب من

beirutonium high resolution photos.indd 86 9/20/2021 10:47:26 AM

فوق صخور الحيد البحري. فإذا كان محمّد واقفًا هناك لحظة بَدء النيران في العنابر فأين قد يقع من هول عصف الانفجار؟ وتابع لبنان: «قبل الانفجار الكبير، تعالت النار ودوّى انفجار صغير سبق تدمير العاصمة. وفي حال كان محمّد فوق الرافعة أو حتى كان واقفًا تحتها فلا شكّ أنه سيذهب إلى ذاك المكان المرتفع الّذي يعرفه تمام المعرفة ليصوّر تلك المشاهد. هناك ربع ساعة تقريبًا تفصل بين بَدء النيران والانفجار الكبير. قد أصبحت متيقنًا من أنّنا إذا وجدنا هاتف محمّد فلا شكّ أنّنا سنجد صورًا أو مقطعًا مصوّرًا للنيران والانفجار أيضًا».

قلقت مريم على لبنان لتسمّره هناك من دون حراك مطرقًا في تفكيره كلّ ذاك الوقت فصاحت له وسألته إن أصابه مكروه.

– أعتقد يا مريم أنني فهمت ما حدث لمحمّد! تابعي البحث أنت بدورك وسآتي إليك بعد قليل وسأحاول تضييق دائرة البحث من خلال توقّع خطواته قبيل الحادث مباشرة، إبقيا أمام نظري لأطمئن إليكما. وأنت يا حجّة اصبري وتوكّلي على الله واسمعي صوت قلبك فولدك حيّ، وبإذن الله سنجده.

– توكّلنا على الله. يا رب ارحمني واشفع لي وأعد إليّ ولدي حيًا يرزق فليس لي سواه في هذا العالم... أرجوك يا الله.

تابعت المرأتان طلب المفقود بينما استمرّ النقيب محلّلًا ما جرى وحاسبًا في رأسه مكان ارتداد جسد محمد على الأرض متذكّرًا ارتداد الجسر الحديديّ. فقد احتسب أيضًا وزن جسد إنسان متوسّط الحجم وحدّد حجم العصف وقوة الاندفاع من خلال تقييمه الأضرار، ففهم أنّه

beirutonium high resolution photos.indd 87 9/20/2021 10:47:26 AM

لو كان يقف في المكان الذي يتوقّعه فلا شكّ أنّه سيرتدّ بين العشرين والخمسين مترًا للوراء من الجهة المعاكسة للانفجار في اتّجاه حاويات الشحن. وبعد أنّ حدّد تقريبًا المكان أيقن أنهم يبحثون في المكان الخطأ فتوجّه مسرعًا إلى البقعة التي حدّدها في عقله. رأته أمّ محمّد وفهمت أنّه وجد شيئا فحاولت أن تركض صوبه لكنّ مريم أوقفتها.

– أرجوك، تريّثي. انتظريني هنا حتّى أُدرك النقيب لعلّنا نجد شيئا فنعود إليكِ بالخبر اليقين. أخاف عليك أن تجدِي ولدك في حالة صعبة...

– يا مريم، يا ابنتي، أتقصدين أنني قد أجد جثّة ولدي مشوّهة؟ تأكدي يا ابنتي أنّه ورغم قساوة المسألة ستبقى أمرًا أسهل عليّ من شعور الخوف والإحساس بالضياع الكلّي. إنّ خسارتي لن تكون بحجم خسارة الوطن وولدي لن يكون أغلى من أولاد الناس أبدًا. إنّ من وجدناهم قد أدمَوْا قلبي صراحةً وأنّ أسى خسارتهم لن يكون أقلّ من أسى خسارة ولدي، لا سمح الله، فالحزن ساوى الناس بعضهم ببعض. أنا سيدة مؤمنة يا ابنتي، لكنّني أمّ. أرجو أن تتركيني أبحث معكم. أرجو ألا تزيدي في قلبي الحسرة والألم.

كان لسان الحجّة يرزح تحت ثقل كلماتها وكأنّ السكّين تقطع حبال الصوت فيها. كذلك كانت تشعر مريم بأنّ قلبها يتمزّق من وقع كلام الأمّ المفجوعة التي أنستها مصيبة فقدان والدها، أو ربما الحالة الإنسانية التي تمرّ بها جعلتها تؤجّل حزنها على والدها وواجب مواساة عائلتها باحثة عن أمل ما، في مكانٍ ما متحديّةً الموت بالحياة. أخذت بيد أمّ محمد وأسرعتا خلف النقيب الّذي بدا وكأنه رأى ابنها أو عرف مكانه على أقلّ تقدير. وما أن وصلتا حيث يقف حتى قال لهما:

beirutonium high resolution photos.indd 88 9/20/2021 10:47:27 AM

- لم تبعتماني إلى هنا؟ إذهبا للبحث قُرب الرافعة يا مريم.
- بنيّ أنا أعلم أنّك قد وجدت شيئا أو أنّك اقتربت من معرفة مكان ولدي. أرجو أن تبقيني معك وإلى جانبك. قد بدأت أشعر بأنك ولدي أيضًا. وقربك أمان وأنا لا أريد أن أبتعد عنك.
- حسنًا، سأخبركما بتحليلاتي ولا أعرف قد أكون مخطئًا... قد حصل الانفجار بعيد انتهاء دوام العمل ولن نجد أحدًا هنا. قد حاولت أن أفهم ما حدث مع محمّد وبناءً على استنتاجات منطقية توقّعت مكان وقوفه في أثناء الانفجار وأدركت أنّه قد يكون وقع مدفوعًا من مكان وقوفه جرّاء هول العصف.

وسرعان ما بدأ الثلاثة يعلون الأصوات ويبحثون بين الركام ويباعدون بين الحطام... وما هي إلّا لحظات حتى سمعوا أنينًا وصوتًا خافتًا متألمًا. كان صوتًا غير مفهوم يئنّ من مكان ما تحت الركام. المكان مبعثرُ المعالم والحاويات مقلوب بعضها فوق بعض والصوتُ يخرج من بينها. هو صوتٌ خافت وأوجاع وكلام غير مفهوم. أهو صوتُ محمّد؟ هل وجدوه حقًا؟ هل سيُثلج قلب الحجّة؟ هل حلّت رحمة الله عليهم رغم المآسي الجمّة التي أصابت الوطن وشعبه بكافة أطيافه؟

«هذا هو صوت ابني! أنا واثقة!» أسرعت الحجّة وتبعها النقيب ومريم طالبين منها توخّي الحذر. لا شيء واضح لكنّهم متأكدون أنّ الصوت يأتي من الداخل بين البضائع والحاويات. حاول الضابط بهمّته القوية أن يعتلي الركام وبدأ بإزاحة البضائع والخردة والحديد وما اختلط من حطامٍ تحت قدميه حتى بانت لهُ يد وصار المشهد أكثر وضوحًا. نعم إنّه حيّ! إنّه شاب حيّ! ما اسمك يا فتى؟ فنطق باسمه «محمّد» من حلاوةِ الروح. أبشري يا حجّة قد وجدنا ولدك، لكن انتبهي

beirutonium high resolution photos.indd 89 9/20/2021 10:47:27 AM

لا يمكنك الصعود فالمكان خطر»، وما أكمل النقيب عبارته حتى همّت الوالدة إلى ولدها غير آبهة بالمخاطر لأنّ حياتها لا تساوي عندها شيئًا فهو مصدر سعادتها. وسأل لبنان الشاب إن كان يستطيع الحراك فأجابه نافيًا وقد لاحظ الضابط أنّ نصف جسده أو ربما أكثر كان مسمّرًا تحت الحطام ومن الصعب سحبه إلّا بالآلات والرافعات. قد تجدّد أخيرًا الأمل في نفوس من يبحثون عن الأحياء بين الموتى.

حاولت الأمّ الوصول إلى المكان ومريم إلى جانبها تساعدها واتّصل النقيب عبر الجهاز بقيادته ليطلب إرسال فريق إنقاذ وتأمين المعدات اللازمة إلى البقعة من أجل رفع الحطام حيث أعلمهم وجود ناج أصيب بجروح عديدة.

باعد الضابط بين الركام حتّى بان جسد الشاب ومدّ يدهُ إليه. بعد ذلك عمد إلى قطع بعض قماش نظيف من بذلته العسكرية وبلّله بالماء ثمّ عصره فوق فَم محمّد وأمسك يد المصاب بقبضته قائلًا له:

- لا تخف يا محمّد! لا تخف يا بطل!
- ما الّذي حدث؟ أين أنا؟
- وقع انفجار كبير في المرفأ وقد جئنا باحثين عنك. إنّ والدتك معنا وقد كانت متأكدة أنك حيّ لأنّ قلبها دليلها.
- أمّي هنا؟!
- نعم وسأفسح لها المجال لرؤيتك. دقائق ونخرجك يا بطل. إقتربي يا حجّة لكن رويدا، فنحن لا نعرف طبيعة الركام الّذي نقف عليه.

beirutonium high resolution photos.indd 90 9/20/2021 10:47:27 AM

كان كلام محمّد يتقطّع لشدّة الألم وكانت مريم تبكي لتأثّرها فقد تذكّرت في تلك اللحظة أنّها خسرت أغلى النّاس على قلبها في الانفجار. أسرعت الأمّ لتكحّل عينيها برؤية وحيدها.

- ابني حبيبي!
- أنا هنا يا حجّة.

جثت على ركبتَيها ومدّت يدها لتلامس وجه ولدها وهي تشكر الله وتحمده لأنّها وجدت فلذة كبدها بخير. وتبسّمت رغم آلامها بسمة الأمل.

- قد كنت متأكدة أنّك حيّ وأنك ستعود إليّ سالمًا.
- لست... إنّي... لست متأكّدًا من عودتي معك يا أمّي!
- أرجوك لا تقل مثل هذا الكلام فأنا لا أحتمل خسارتك!
- أنتِ امرأة مؤمنة وتعلمين أنّ مصيرنا رهن إرادة الخالق. أنا لا أشعر بقدميّ وأسفل جسدي يا أمّي! أعتقد أنّني سأغادر هذا العالم قريبًا.
- أرجوك لا تقل هذا الكلام... أرجوك.

انهارت الأمّ فولدها لا حول ولا قوّة له وهي لا تستطيع إنقاذه ولا يمكنها سوى الدعاء له. جرفتها عاطفة الأمومة فخشي عليها لبنان فطلب منها الابتعاد حتّى تفسح له المجال من أجل إبعاد الحطام عن جسد ولدها منتظرًا فرق الدعم التي شارفت على الوصول. ساعد النقيب الحجة على الابتعاد من فوق الركام وفي تلك اللحظة اقتربت مريم من فوق الحفرة وراحت تواسيه وتدعوه إلى التحمّل والصبر:

- إصبر يا محمد فالمساعدة قادمة! إصبر يا بطل!

beirutonium high resolution photos.indd 91 9/20/2021 10:47:27 AM

– مَن أنتِ؟

– أنا من عَلِمَت أن والدها قضى شهيدَ الواجب جرّاء الانفجار لكنني جئت سندًا لأمّك.

– رحمَه الله... لم أنتِ هنا؟ لم لست مع عائلتك؟

– لأنّ ارادة الحياة أقوى من إرادة الموت يا أخي. فوالدي قد فارق الحياة وهذه مشيئة الربّ. وقد كان من واجبي كإنسانة وممرّضة أن أقف إلى جانب والدتك من أجل مواساتها ومساعدتها للبحث عنك ما دام هنالك أمل في أن تكون حيًّا. إنّنا نشكر الربّ لأنّنا وجدناك على قيد الحياة. قد نذرتك لمار شربل وطلبت من القدّيسين أن يرأفوا بحال والدتك. فما كان أشدّنا حاجة إلى عجيبة!

– إذا أنت مسيحيّة وتبذلين النفس مع المسلمين. ما أروعَك يا وطني لبنان! ما أروع أهلك! حقًا إنّك الوطن الرسالة!

– يا محمّد، ألم يقل نبيّ الإسلام: «لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود إلّا بالتقوى»؟

– عليه الصلاة والسلام ... قالها.

– كذلك علّمنا يسوع المسيح أن نحبّ جميع النّاس من دون تفرقة أو تمييز، فحتى لو تميّزت عنّي بدينك فأنت ولا شكّ أخي في الإنسانيّة. فكيف أترك والدتك من دون مساعدتها في البحث عنك أو أقلّه أن أبقى معها حرصًا على سلامتها؟

– أنت إنسانة عظيمة فعلًا...

beirutonium high resolution photos.indd 92 9/20/2021 10:47:27 AM

- لا تتكلّم كثيرًا، أرح نفسك يا محمّد. إنّ المساعدة قادمة وستنجو بإذن الربّ.
- لا أعتقد ذلك، فأنا لا أشعر بنصف جسدي ولا أقوى على تحريك قدمَيّ ولا يدي اليسرى. أنا أوصيك بوالدتي يا مريم.
- لا توصي أحدًا لأنك ستنجو من هذا الحادث لتهتمّ أنت بها.
- إسمعيني جيدًا، إنّني أعي خطورة ما حدث لي ولا أعتقد بأنني سأنجو... إنّ وقتي قد اقترب لهذا أوصيك بها فليس لها أحد غيري. كوني ابنتها واهتمّي بها فهي زهرة حياتي والأمانة التي خصّني بها الله بعد موت والدي.
- إنّك تدمي قلبي بكلامك هذا. إرحمني فقد خسرت والدي ولا أريد أن أخسر أمل إنقاذك وإعادتك إلى بيتك سالما وإسعاد قلب أمّك.
- منذ قليل ذكرت لي حديثًا شريفًا للرسول (عليه الصلاة والسلام) والآن دعيني أذكر لك آيتَين من الإنجيل. الأولى «الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ، الْفَقْرُ وَالْغِنَى مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ.»[١٤] أمّا الثانية: «فإِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ.»[١٥] إذا يا مريم أكان في حياتنا أو في موتنا فإننا نحيا ونموت لله، سبحانه وتعالى، ومصيرنا كلّه بين يديه.
- لا أعلم ماذا أقول لقد تاهت الحروف عن لساني.

١٤- سفر يشوع ١١: ١٤

١٥- رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٤: ٨

beirutonium high resolution photos.indd 93 9/20/2021 10:47:28 AM

– إصبري على مصابك ورحم الله والدك. كوني إلى جانب عائلتك ولا تنسي والدتي إن كان لك سبيل إلى الاهتمام بها.

– أرجوك لا تغفُ. لا تنم يا محمّد ولا تستسلم للألم. إبقَ صاحيا فالمساعدة قادمة.

– لا أشعر بأنني بخير، سأرحل مطمئنًا إلى والدتي لوجود أمثالك وأمثال هذا الضابط الشريف في وطننا.

أردف محمّد عبارته تلك وهو شاخص إلى عينَي مريم التي وجدَ فيها ملاكًا بريئًا يمدُّ لَهُ يد المساعدة وينسيه آلامه وواقعه. نادت مريم لبنان ورجته أن يسرع فأشار لها أن تنزل لتهتمّ بأمّ محمد لعلّه يحاول أن يرفع بعض الأثقال عن جسد الشاب وهكذا حصل. لكنّه وعلى الرغم من قوّته الجسدية ما كان ليقدر على رفع جسور الحديد الكبيرة وبالطبع لم يكن ليقوى على تحريك الحاويات. عندها سمع صوت محمّد.

– توقّف أرجوك. لا تجهد نفسك! أتركني فلا أمل في نجاتي! أنا أعلم أن وضعي يرثى له.

– يجب أن تنجو لأعاقبك.

– وعلام تعاقبني؟

– لأنك تسلّقت الوحش الأزرق بعد انتهاء دوام عملك وهذا أمر خطير وغير مصرّح لك به.

– وهل أخبرتك والدتي عن الوحش الأزرق؟

– لو لم تخبرني بما تفعله حين الغروب لما وجدتك. هات أخبرني عمّا يشدّك إليه كلّ مرّة!

beirutonium high resolution photos.indd 94 9/20/2021 10:47:28 AM

- الغروب... إنّه ساعة تتكشّف لك الدنيا، إنّه حرفة الإبداع في ما خلقه الله وكأنّ السرّ الكامن منذ الأزل يتراءى أمام عينيّ؛ قد تحسبني طفلًا لقولي هذا يا حضرة النقيب.
- اسمي لبنان.
- وتحمل الوطن واسمه؟
- هذا ما أراده لي والدي، لم يستشرني قبل أن يلصق بي هذا الاسم ولست أعلم إن كان خيرًا أو شؤمًا.

أراد النقيب أن يخفّف آلام الشاب بكلامٍ ملطّف لعلّه يساعدُه على البقاء يقظًا ويرفع عنه بعض وجعه أو ينسيه ما حلّ به. وما أصعبها لحظة يكون فيها الإنسان مخفّفًا قسوة ألم فاضت به الروح وأنين جسد أثخنته الجراح! ثمّ عاد النقيب بعدها ليتوجّه بكلامه إلى الأمّ ويبشّرها أنّ ابنها بخير وأنّه سيخرج من تحت الركام ويعود إلى حضنها.

- لم تكذب على والدتي؟
- لم أكذب يا محمّد فصدقُ اللسان غايتي.
- أنت تعلم أنّني لن أنجو... فجسمي قد يكون قُطع إلى نصفَين. أحسبها لحظاتي الأخيرة وكأنّ النفق الآن يزداد اسودادًا. هذه صحوتي الأخيرة لكنّني سأطلب منك طلبًا أخيرًا قبل مغادرتي هذا العالم وأرجو أن تقبل مني ما سأقوله. ليس لوالدتي أيّ معيل غيري، أرجوك أن تهتم بها من بعدي فإذا رحلت عن هذا العالم أريد أن أتأكّد أنّها بخير وأنّ هناك من يطمئن إلى حالها ويرعاها. أريدك أن تعدني بشيء بعد، وهذا الوعد لا يقلّ أهمّية عن سابقه!

beirutonium high resolution photos.indd 95 9/20/2021 10:47:28 AM

– أطلب ما تريده!

– لا بدّ أنّ هذا الانفجار الكبير قد خلّف دمارًا كبيرًا في عاصمتنا الحبيبة وحصد أرواح الأبرياء. عدني بأنّك لن تكلّ ولن تملّ قبل أن تجد أنت والأبطال الأحرار أصحاب الضمائر الحرّة في وطننا مَن ارتكب بحقّ مدينتنا وشعبنا هذه الجريمة وتعاقبوه ليكون عبرة للآخرين!

– لكنني لست ذا صلاحيّة يا محمد حتى أعدك بالأمر فأنا عبدٌ مأمور مكبّلة حريّته.

– أريدك أن تعدني كمواطن حرّ. عدني كمواطن! إنّني أرى فيك صورة المواطن الصادق الشريف، عدني وسأموت بعدها مرتاح البال على وطني.

تأثّر لبنان جدًّا بكلام الشاب فهو على الرغم من آلامه ونزاعه مع الموت ما يزال يفكّر في وطنه ومصير شعبه طالبًا كشف الحقيقة ونصرة المظلومين. فما كان من لبنان إلّا أن وعده بأن يلبّي طلبه فتابع محمّد كلامه:

– أنت محظوظ لأنك تحمل اسم وطنٍ لا يموت. فلبنان طائر فينيق ينفضُ عنه غبار الدّمار والموت فيبعث من جديد علامة الأمل والقيامة. أنت محظوظ لأنّ وطننا، مع ما يصيبه من مآس، يبقى أجمل الأوطان والأرض التي عرفنا وجودنا فيها. أحزن لأنني لم أعش أكثر لأراه وطنًا حلمًا لكنّني فخور بحياتي التي عشتها فيه.

beirutonium high resolution photos.indd 96 9/20/2021 10:47:28 AM

– كنْ قويًا وتخطَّ هذه المحنة لنتعرّفه معًا فيما بعد. أريدك أن تكون صديقي وأخي...

– ليتني كنت قادرًا فرحيلي قد حان يا لبنان.

– لا تفلت يدي وكنْ قويًّا يا محمّد. ألا تسمع صوت رجالي عبر الجهاز؟! إسمع جيّدًا، إنّهم قادمون وقد أصبحوا على مقربة منّا.

– لن أستطيع الانتظار أكثر فلا أقدر على الاحتمال. هل ناديت أمي لأودعها؟

– يا مريم ساعدي الحجّة للصعود إلى هنا فمحمّد يريد أن يُحدّثها.

وقفت الأمّ إلى جانب ابنها ثمّ جثت على قدميها باكية فنظر محمّد إلى والدته مبتسمًا فقال:

– إصبري يا حجة فإنّ الله مع الصابرين.

ثمّ هزّت رأسها واسترسلت في البكاء ولم تكن قادرة على الكلام وراحت تسقي جبين ولدها بقطرات دمعها.

– أعتذر منك يا أمّي لأنني جعلتك تتكبّدين عناء البحث عنّي. لكنّني سعيد الآن، فقبل الحادث كان لك ولد وحيد والآن أصبح لديك ابن آخر اسمه لبنان وابنة شابة جميلة، قد وعداني أن يهتمّا بك وأنا واثق من قدرتهما. أليس كذلك؟

اقتربت مريم ومدّت يدها إلى محمّد وأمسكت بيده ويد والدته دامعة باكية وهي تهزّ رأسها رضى وقبولًا. كذلك فعل لبنان فقد جثا

beirutonium high resolution photos.indd 97 9/20/2021 10:47:28 AM

قرب الحجّة فتشابكت الأيادي في تلك الحفرة، وكأنّ الشعب اللّبناني أجمع اتّحد وتعاضد في تلك اللحظة.. يا لها من لحظة مؤثّرة فعلًا! الأربعة يبكون ومحمّد وحده هو القادر على الكلام وكأنّه يعلم أنّ هذه آخرُ كلماته.

- يا حجّة، أنت أمّ صالحة. قد ربّيتني خير تربية بعد رحيل والدي وأتممت رسالةً لوجه الله. كوني قويّة، أنا لا أريدك أن تكوني ضعيفة. إنّ روحي ستبقى معك للأبد. أعذريني يا أمّي لأنني لم أستطع أن أبقى إلى جانبك لكنّني سأرحل مطمئنا لأنّني كسبْتُ أخًا وأختًا اليوم. فرغم هول الفاجعة والانفجار وما أحدثه من دمار أبى الله، سبحانه وتعالى، أن أفارق هذا العالم غير مطمئن. أصبحت متأكّدًا أنه أبقاني حيًا إلى حين قدومك حتّى أرحل عن هذا العالم مطمئنًّا، فقد كنت قلقًا جدًّا وخائفًا على مصيرك من بعدي يا أمّي.
- لا تقل هذا الكلام يا بني أرجوك. سأموت من دونك.
- لا أحد يموت إلّا بأمر الله عزّ وجلّ. لم يحن بعد وقتك يا والدتي الحبيبة. أمّا أنا فقد آن أواني. أتركك بعهدة الله ومن بعده لبنان ومريم ودائمًا أذكريني في صلاتك.

في تلك اللحظة نسي لبنان خبراته وجبروته وصلابته وشعر كأنّه طفل ضعيف لا حول ولا قوة له أمام هذا المشهد الإنسانيّ، كذلك مريم كان قلبها يتمزّق لسماعها حوار الوداع بين الولد وأمه وهي التي لم تقوَ على الكلام وراحت تغسل وجه ولدها بندى دموعها عندها نطق محمّد آخر كلماته:

beirutonium high resolution photos.indd 98 9/20/2021 10:47:28 AM

– مريم لا تنسي وعدك لي. وأنت يا لبنان لي عندك وعدان وهما دينك. وأنت يا أمّي لا تحزني ولا تبكي فهذه مشيئة الله أوصيك بالصبر، كان الله تعالى في عونك. أستودعكم لبنان الحبيب. لا خوف من الموت لكنّ الخوف الأكبر أن تموت الحقيقة مع موتنا. أشهد أنّ لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله.

إنّها الساعة ٦:٤٨ م. فارق محمّد الحياة بعد أن نطق بالشهادتَين. أسلم الرّوح وهو ممسك بيد والدته ومريم ولبنان. لقد تشابكت للمرّة الأخيرة الأيادي الأربع. في تلك اللحظة توقّف الزمن وعمّ السكون رغم أصوات النّاس وضجيج الآلات القادمة وقرقعة الرّكام تحتها. هو صمتُ الخشوعِ في حضرةِ الحقّ، حقّ الموت، الموت الذّي أبى إلّا أن يأخذ شابًا تاركًا وراءه رسالة وأمًا ثكلى خسِرَت وحيدها إلّا أنّها كسبت ابنةً وابنًا من شرفاء الوطن. فالموت الذي لم يجزع النقيب في أرض المعارك أرعبه أمام حنان الأم وانكسار قلبها.

هو الموت عينه الّذي خطف من مريم والدها قبل دقائق خلت وعاد ليخطف شابًا في مقتبل العمر من أمام عينيها. ذاك هو الموت الّذي انبعثت من بين ثناياه رسالة حياة. هي حياةٌ إنسيّة فيها الوفاء والإخلاص والمحبّة الموشّاة بالمواساة. فلبنان النقيب كسب أمًّا وأختًا. ومريم الممرّضة كسبت كذلك عائلةً جيّدة. أمّا الحجّة أم محمّد فخسرت وربحت في آن، خسِرت ولدًا وكسبت وطنًا بكسبِها قلبين محبيّن يجسّدان تعاضد اللبنانيين ووجوب تعايشهم بعضهم مع بعض بمحبّة... وتبقى العبرة في قادم الأيّام، تموت الدّنيا ولا يموت لبنان.

النهاية.

beirutonium high resolution photos.indd 99 9/20/2021 10:47:29 AM

ويبقى الأمل في أن ينهض الوطن من كبوته...

فالتغيير يحتاج إلى ثورة وليس أيّ ثورة...

ثورة على النّفوس تغيّر ما يكتنزها من تعصّب أعمى وتبعية صمّاء...

ثورة تعيد الانتماء إلى الوطن، هذا الوطن بما حمله من إرث إنسيّ ثقافي وحضاريّ...

ثورة تحتاج رؤيّة مستقبلية واعية وأفكارًا سياسيّة معاصرة عادلة متحرّرة من قيود الجهل ولعبة الأمم...

ويبقى الأمل ...

{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[١٦].

{فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا دُعِيتُمْ لِلْحُرِّيَّةِ أَيُّهَا ٱلْإِخْوَةُ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا تُصَيِّرُوا ٱلْحُرِّيَّةَ فُرْصَةً لِلْجَسَدِ، بَلْ بِٱلْمَحَبَّةِ ٱخْدِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا}[١٧].

ألحان فرحات

٤ آب ٢٠٢١

*** كُتبت هذه الرواية في غضون أيام قليلة بعد وقوع انفجار مرفأ بيروت، وطُبعت للنشر في ذكرى مرور سنة على المأساة.**

١٦- القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية ١١.
١٧- الإنجيل المقدّس، غَلَاطِيَّةَ ٥: ١٣.

beirutonium high resolution photos.indd 101 9/20/2021 10:47:29 AM

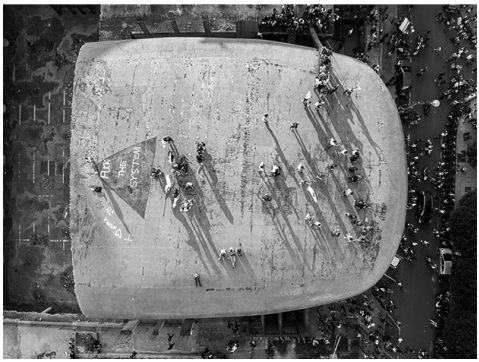

beirutonium high resolution photos.indd 102 9/20/2021 10:47:29 AM

نبذة عن حياة المؤلِّف

- ألحان وليد فرحات لبناني، من مواليد نيحا الشوف ١٩٨٦\١٠\١٢١. أنهى دراسته المتوسّطة في مدرسة راهبات القلبين الأقدسين جزين، والمرحلة الثانوية في ثانوية بلدته نيحا الشوف.
- حائز على إجازتَي بكالوريوس من كليّة التجارة في جامعة بيروت العربية بين عامَي ٢٠٠٤ و٢٠٠٩، الأولى بكالوريوس في العلوم المصرفية والمالية، والثانية بكالوريوس في إدارة الأعمال.
- حائز على إجازة ماجستير في علوم إدارة الأعمال من جامعة العلوم والتكنولوجيا في بيروت AUL عام ٢٠١١ مقدّمًا أطروحة عن تأثير الهيكلية الداخلية للمصارف في مكافحة جريمة تبييض الأموال؛ وتخرّج فيها بدرجة جيد جدًا.
- حائز على شهادة تقنية في مجال تصميم الإعلانات من معهد الـ C.I.S (فرع خلدة) عام ٢٠١٦.
- حائز على بكالوريوس فلسفة من كليّة الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية الفرع الأول- الأونيسكو عام ٢٠١٨ متخرّجًا بدرجة جيّد.
- حائز على بكالوريوس في العلوم السياسيّة من جامعة الجنان (فرع صيدا) مقدّمًا مشروع تخرّج حول "الفدرالية"، وقد نال المرتبة الأولى على مستوى الكليّة لعام ٢٠١٨/٢٠١٩ بتقدير جيد جدًا.

beirutonium high resolution photos.indd 103 9/20/2021 10:47:29 AM

- يتابع دراساته العليا "الدكتوراه" في جامعة الإمام الأوزاعي - بيروت، متخصّصا في الدراسات الإسلامية.
- بدأ حياته مصرفيًا وبعدها انتقل الى التجارة وإدارة الأعمال في مجالات مختلفة في لبنان وبلاد الاغتراب.
- كاتب وروائيّ، له ثلاث روايات: «حكاية طَموح»، «بَراثن وأقدار» و«صَرخة ضَمير»، بالإضافة الى كتاب في السياسة حول الفدراليّة.
- ناشط سياسيّ ومؤسّس ائتلاف الشباب اللبناني.
- ترشّح للانتخابات النيابيّة في دورتي ٢٠١٣ / ٢٠١٥ المُمدّدتين. كما ترشّح في دورة ٢٠١٨ ممثلًا ائتلاف الشباب اللّبناني على لائحة القرار الحرّ في دائرة الشوف وعاليه.

beirutonium high resolution photos.indd 104 9/20/2021 10:47:29 AM